الفصل الثانى

مواقع (ثم) وأسرارها

obeikan.com

obeikan.com

خصائصها وإثراء القرآن لمعانيها

• طبيعة هذا الحرف

«ثم» أداة ربط رقيقة، تسوس الألفاظ برفق، وتشد عراها فى أناة، وتجمع أباعدها ومتنافرها فى يسر ولين. وذلك ما ينم عنه أصلها الذى تنتسب إليه فالثَّمُّ: إصلاح الشىء وإحكامه، وثَمَّ الشىء يثُمه: جمعه وقول الشاعر:

..... وثمُّوا الأوطب النواشجا

أراد: أنهم شدوها وأحكموها[1]. فالفاء والميم -كما قال ابن فارس- أصل واحد، هو اجتماع الشىء فى لين[2]، وقال السهيلى: (لاغرو أن يتقارب معنى الحرف من معنى الاسم المشتق المتمكن فى الكلام. فهذه «ثم» حرف عطف، ولفظها كلفظ الثَّم، والثَّم هو رمّ الشىء بعضه إلى بعض. . . . وأصله من ثممت البيت: إذا كانت فيه فرج فَسُدَّ بالثمام. وقال الشاعر:

وأما الرياح فقد غادرت رواكد واستمتعت بالثمام

والمعنى الذى فى ثُم العاطفة قريب من هذا، لأنه ضم شىء إلى شىء بينهما مهلة، كما أن ثَمَّ البيت ضمٌّ بين شيئين بينهما فرجة)[3].

ومن مفاتن هذه اللغة الشاعرة، ودقة مواءمتها بين اللفظ والمعنى، أنها اختارت الفاء، وهى حرف واحد لمعنى المسارعة، و«ثم» وهى ثلاثة أحرف للمهلة، ليواكب قصر الزمن فى النطق بالفاء التوالى السريع للأحداث، ويتناغم طول النطق بحرف المهلة مع التراخى فى وقوع الأحداث.

وما أثبته النحاة لهذا الحرف، من معانى التشريك، والترتيب، والمهلة، ملتفت إلى هذا الأصل، ومستمد منه. يقول المرادى فى تحديد مدلوله: («ثم» حرف

(١) ينظر: لسان العرب مادة: ثمَّ.
(٢) معجم مقاييس اللغة ١/٨.
(٣) نتائج الفكر ١٢٤.

عطف يشرك فى الحكم، ويفيد الترتيب بمهلة، فإذا قلت: قام زيد ثم عمرو، آذنت بأن الثانى بعد الأول بمهلة)[1].

فامتازت عن الواو بالترتيب والمهلة، وعن الفاء بدلالتها على التراخى، فإذا قلت -والكلام لسيبويه-: (مررت برجل راكب وذاهب، استحقهما، لا لأن الركوب قبل الذهاب. ومنه: مررت برجل راكب فذاهب استحقهما، إلا أنه بيَّن أن الذهاب بعد الركوب، وأنه لا مهلة بينهما، وجعله متصلا به، ومنه: مررت برجل راكب ثم ذاهب، فبيَّن أن الذهاب بعده، وأن بينهما مهلة وجعله غير متصل به، فصيَّره على حدة)[2].

والاتصال الذى يقصده سيبويه، اتصال زمن المعطوف بزمن المعطوف عليه فى الفاء، وانقطاعه فى حرف التراخى.

تلك هى خصائص هذه الحروف، حيث ترتدى ثوبها الذى نسجت اللغة خيوطه، ووثَّق عراه قدامى النحاة.

وقد لفتنا إمام النحاة إلى نكتة دقيقة، لم تأخذ حظها من الدراسة والتأمل فى الفرق بين حرفى التعقيب والتراخى. وكثيرا ما وطأ -رحمه الله- لعلم المعانى بما بثّه فى كتابه من إشارات صارت فيما بعد مباحث من أصول هذا الفن.

قال سيبويه: (ومن ذلك قولك: مررت بزيد فعمرو، ومررت برجل فامرأة، فالفاء أشركت بينهما فى المرور، وجعلت الأول مبدوءا به، ومن ذلك: مررت برجل ثم امرأة، فالمرور ههنا مروران، وجعلت «ثم» الأول مبدوءا به، وأشركت بينهما فى الجر)[3].

كانت هذه الإشارة نواة التفرقة عند البلاغيين بين عطف غرضه تفصيل المسند إليه، وعطف آخر يهدف إلى تفصيل المسند، فمن الأول العطف بالواو، ومن الثانى العطف بالفاء وثم. وقد بنى البلاغيون ذلك على ما أشار إليه سيبويه من

(١) الجنى الدانى ٤٢٦.
(٢) كتاب سيبويه ١/ ٤٢٩.
(٣) كتاب سيبويه ١/ ٤٣٨.

أن المرور فى قولك: مررت برجل وامرأة مرورٌ واحد، فالتفصيل حينئذ فى المرور به، وفى قولك مررت بزيد ثم عمرو مروران لامرور واحد، فالتفصيل فى المسند، يقول السعد فى المطول: (وأما العطف، أى جعل الشىء معطوفا على المسند إليه، فلتفصيل المسند إليه مع اختصار، نحو: جاءنى زيد وعمرو، فإن فيه تفصيلا للفاعل، من غير دلالة على تفصيل الفعل، إذ الواو إنما هو للجمع المطلق، أى لثبوت الحكم للتابع والمتبوع، من غير تعرّض لتقدّم أو تأخر أو معية.. أو لتفصيل المسند، بأنه قد حصل من أحد المذكورين أولا، ومن الآخر بعده، متراخيا أو غير متراخ كذلك، نحو: جاءنى زيد فعمرو، أو ثم عمرو. أو جاءنى القوم حتى خالد، فهذه الثلاثة تشترك فى تفصيل المسند، وتختلف من جهة أن الفاء تدل على أن ملابسة الفعل للتابع بعد ملابسته للمتبوع بلا مهلة، و«ثم» كذلك مع مهلة)[1].

ويعلق عليه السيد الشريف متكئا على عبارة سيبويه، فيقول: (يشير إلى أن تفصيل المسند، إنما هو بأن يشار إلى تعدده وامتياز بعضه عن بعض، بحسب الوقوع فى الأزمنة، إما على التعاقب أو التراخى، فإن هذا هو المعتبر فى باب العطف، دون ما عداه من الامتياز بحسب القوة أو الضعف، أو المحل، أو المتعلق، فإن المرور فى قولك: مررت بزيد وحمار يعد عرفا مرورا واحدا، وفى قولك: مررت بزيد فحمار يعدّ مرورين)[2].

لكن ظاهر عبارة سيبويه -كما أثبتناها- لا يدل على أن المرور فى العطف بالفاء مروران، بل هو مرور واحد متصل توالى على المرأة والرجل بلا فاصل زمنى، فهو يقول: «فالفاء أشركت بينهما فى المرور»، ولم يصرح بأنه مروران، كما صرح به فى «ثم»، وغيَّر عبارة الإشراك فى المرور مع الفاء، إلى الإشراك فى الجر مع ثم، وليس مثل سيبويه من يغيّر عباراته بلا قصد.

(١) المطول ١٠١.
(٢) حاشية السيد على المطول ١٠١.

وفى كلام الرضى دليل على ما فهمت من كلام سيبويه، جاء فى شرحه للكافية: (قوله «وثم» بمهلة، أى مثل الفاء فى الترتيب، إلا أنها تختص بالمهلة والتراخى، ومن ثَمَّ قال سيبويه فى «مررت بزيد ثم عمرو» إن المرور مروران)[1] فأنت تراه يستدل بكلام سيبويه على اختصاص ثم وامتيازها عن الفاء بالمهلة والتراخى، ولا وجه لهذا الاستدلال لو كانت الفاء تشاركها ما استدل به.

ثم إن تفريقه بين الفاء وثم باتصال زمن المتعاطفين فى الأولى، وانقطاعه فى الثانية، يؤكد ما صرح به من جعل المرور مع «ثم» مرورين، لوقوعهما فى زمنين متباعدين.

وذلك ما فهمه، وصرح به عصام الدين طاشكبرى زاده فى شرح الفوائد الغياثية، فقال: (نقل عن سيبويه الفرق بين التعقيب والمهلة، أن الفعل فى الأول واحد، لعدم انقطاع الثانى عن الأول، بخلاف الثانى، إذ يتخلل بينهما التراخى)[2].

أصل بذلك إلى اللمحة الطريفة التى طيّرتها عبارة سيبويه، وهى تكثير الحدث وتنميته، والاتساع به زمنا ومعنى، بجعل المرور مرورين فيما عطف بحرف المهلة، وهو الذى قلت إنه لم يستثمر على المستوى النظرى، وإن كانت تطبيقات المفسرين ورجالات البيان على النصوص القرآنية لم تخل من الإفادة منه، فهم يقولون فى عطف المكرر بها، إن المعطوف أبلغ من المعطوف عليه، ولن يكون ذلك إلا إذا كان الثانى غير الأول، وإن كان أهل البيان يرونه ضربا من التجوز فى معنى الحرف، وهو ما سنعرض له فى موضعه.

- **أثر الدراسات القرآنية فى إثراء دلالاته:**

لقد أثرى القرآن حرف التراخى بما خلعه عليه من حلل المجاز، التى لم نره فيها بعيدا عن محيط الدراسات القرآنية، فكان القول بالتفاوت الرتبى،

(١) شرح الكافية ٢/ ٣٦٧. (٢) شرح الفوائد الغياثية ٩٢.

والاستبعاد، وهما ضربان من التجوز فى معنى الحرف وليد هذه الدراسات وحدها، حتى صرح أبو حيان أكثر من مرة فى تفسيره بأنه لم يسمع هذا المعنى لثُمَّ إلا من جار الله الزمخشرى فى كشافه. وفى ذلك الدليل على أن القرآن نفخ فى الدراسات التى دارت حوله من روح الإعجاز فى نظمه ما جعلها جديرة بتمثل معانيه وإدراك أسراره.

وإذا أردت دليلا على ما نقول، فانظر كيف عولج معنى هذا الحرف بعيدا عن محيط الدرس القرآنى، وكيف عولج نفس الحرف فى نفس البيت من الشعر عند الاستشهاد به على دلالته فى النص القرآنى، وكأنما يعاد استكشاف معناه لأول مرة. ففى شرحه لقول جعفر بن علبة الحارثى:

لا يكشف الغمّاءَ إلا ابنُ حُرّة يرى غمرات الموت ثم يزورها

قال المرزوقى المتوفَّى فى الربع الأول من القرن الخامس الهجرى: (فإن قيل: لم عطف الزيارة على رؤية الغمرات بحرف المهلة، وهلا جعلها عقيب الرؤية؟ قلت: إن «ثم» وإن كان فى عطفه المفرد على المفرد يدل على التراخى، فإنه فى عطف الجملة على الجملة ليس كذلك. ألا ترى قوله عز وجل: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [البلد: ١٢-١٧]، ولا يجوز تراخى الإيمان عن شىء مما عده وذكره)[1] هذا مثال لتناول معنى الحرف فى محيط الدراسات الأدبية، وأنت تراه يخلع عن «ثم» معناها الأصيل الذى به تمتاز عن شقيقتها الفاء، وهو التراخى، ويستشهد لذلك بالنص القرآنى.

قارن ذلك بما قاله الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا**﴾ [السجدة: ٢٢] واستشهد بالبيت نفسه، لترى كيف خلع على «ثم» فى البيت ما فاضت به من المعانى فى النظم الحكيم. وهو خير شاهد على

(١) شرح ديوان الحماسة ١/ ٥٠.

ما قلت من إثراء القرآن لهذا الحرف، وتفجير عيون من الدراسة حوله لم نشهدها بعيدا عن دراسات الإعجاز. قال الزمخشرى: («ثم» فى قوله «ثم أعرض عنها» للاستبعاد، والمعنى: أن الإعراض عن مثل آيات الله فى وضوحها وإنارتها، وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد فى العقل والعدل، كما تقول لصاحبك: وجدت مثل تلك الفرصة، ثم لم تنتهزها، استبعادا لتركه الانتهاز. ومنه «ثم» فى بيت الحماسة:

لا يكشف الغمّاء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

استبعد أن يزور غمرات الموت، بعد أن رآها، واستيقنها، واطلع على شدتها)[1].

إن هذا الاستبعاد فى العقل والعدل الذى وسوست به «ثم» فى الآية، هو الذى كسى الإعراض غلالة من القبح، وأبرز جهل المعرضين، حين خالفوا بصنيعهم موجبات العقل وسَنَن العقلاء، فأدبروا عما يستوجب الإقبال، وهو نفسه الذى بلغ بالشجاعة والصبر فى بيت الحماسة حدا فاق تصور العقول، حين ألقى الحر بنفسه فى قُحم الموت، وأقبل على خوض غمراته، بعد أن شاهد نذر الهلاك، إقبال الزائر المحب، الذى يرى سعادته فى زيارة من يهواه، ليتعانق التجوز بالاستعارة فى «ثم» مع التجوز بالاستعارة فى الفعل «يزور» فى رسم مشهد للجرأة والإقدام فاق كل تصور.

إن مثل هذا البيان الذى سرى إلى بيت الحماسة، من نبع الدراسة القرآنية، ما كنا لنرى مثله، لولا ما فجّره القرآن بنظمه السامى فى عقول دراسية، وألقى على أذواقهم ذوبا من رحيق إعجازه. ليعاد على ضوئه النظر فيما كان مستورا من بيان لغتنا الشاعرة.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤٦.

المهلة بين حقيقة الزمن والإحساس به

• تصوير الإحساس بالزمن

حقيقة «ثم» الدلالة على التراخى، وهو أن يكون بين المعطوفين مهلة، لكن هذا التراخى يخضع لاعتبارات نفسية وعقلية، وتقديرات فى تصور المتكلم حينا، وفى عقل المخاطب وحسّه حينا آخر، ولأحوال ودواع تقتضيها مقامات الكلام وسياقاته حينا ثالثا، ووراء هذا تكمن أسرار الحرف، وبقدر استجابته لهذه الطموحات يتفاضل كلام على كلام.

وأهم ما يميز «ثم» قدرته على نقل تلك الأحاسيس من خلال تحريك زمن الأحداث، مدا وجزرا، وقبضه وبسطه بما يستطيع تصوير أحوال النفوس، وتجسيد ما يغمرها من فيض الشعور، وتمثيله فى بُعْد حسى، تعكس عليه النفوس والعقول انفعالاتها وخواطرها.

وقد لمس الأستاذ الكبير محمود شاكر هذه الخصوصية فى «ثم» برقة، وفى عبارة شديدة التركيز، حين قال تعليقا على قول الشاعر:

وفتوٍّ هجَّروا ثم أسروا ليلهم حتى إذا انجاب حلوا

(ولم يعطف بالواو، فيقول: «هجروا وأسروا ليلهم» بل قال: «ثم أسروا» لأن العطف بالواو يجعل الكلام كأنه أخبار عن أفعال كانت فى زمن وانقضت، ولا يراد غير الخبر. أما «ثم» فهى بطبيعتها تحمل معنى الحركة والتتابع، بلا نظر إلى الزمن المقيد، كما تقول: «صعد فى الجبل، ثم وقف على قمته، ثم نظر، ثم رمى بنفسه، فهوى» ومعنى الحركة والتتابع ظاهر كل الظهور فيما ذكر الله سبحانه وتعالى من أمر الوليد بن المغيرة المخزومى، لما تعرض لرسول الله ﷺ، ثم سمع القرآن: ﴿**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ**

﴿هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨-٢٥] وهذا موضع يحتاج إلى فضل تأمل منك وترداد، وهو من روائع هذه اللغة الشريفة الشاعرة، كما أسماها أستاذنا العقاد رحمه الله وغفر له، أما ما يقوله النحاة فى «ثم» من أنها حرف عاطف يقتضى الترتيب والتراخى والمهلة، فهو نظر نحاة يحتاج إلى بيان)[1].

الفرق بين قولك: صعد فى الجبل، ووقف على قمته، ونظر، ورمى بنفسه فهوى، وبين عطف هذه الأفعال بثم، هو الفرق بين مشهد مقروء، تقف فيه على أخبار منقضية، وبين مشهد ممثَّل يعرض عليك حركة الصعود، وصعوبتها، ويريك ثقل الأرجل فى خطوات بطيئة عاثرة، كما يريك حركة التردد فى ذهن المنتحر، يبعث عليها حب الحياة، والتشبث بها، فى قوله «ثم نظر». فالحركة والتتابع تراها فى خطوات الصاعد، وتحسها فى خطرات فكره، ونبضات قلبه. وهذا ما عنيته بقدرة هذا الحرف على تصوير أحوال النفوس، والكشف عن مكنوناتها. وخير مثال لذلك ما جسّدت فيه «ثم» الصراع النفسى الذى احتدم فى نفس الوليد بن المغيرة، حين استمع إلى القرآن، فلمس ما سمعه شغاف قلبه، واقتحم عليه جدرانه المغلقة، والوليد عربى لا يستطيع أن يسدَّ مسام حواسه عن التأثر بروائع البيان. إنه زلزال يهز بعنف أركان نفس عنيدة، ويحطم معتقدات كان بالأمس يراها ثابتة عميقة الجذور، فتدور فى نفسه معركة بين الحق الغازى والهوى المتسلط، بين الخضوع لسلطان الحق والعقل، والتشبث بالزعامة والأثرة، وتأرجحت فى نفسه نتائج المعركة، وظهر أثر ذلك فى إقدامه وإحجامه، واعترافه بالحق، وردّته عنه، يؤيد ذلك ما جاء فى تفسير الطبرى من (أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل. فأتاه فقال: زُعِم أن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا، قال: لم؟ قال: يعطونكه، فإنك أتيت محمدا تتعرض لماله قال: قد علمت قريش أنى أكثرها مالا! قال: فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له، قال: فماذا أقول

(١) من مقال بعنوان «نمط صعب ونمط مخيف» منشور بمجلة المجلة -الحلقة الخامسة- العدد ١٥٥ نوفمبر ١٩٦٩، ص ٩.

فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى، ولا أعلم برجزه منى ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقوله شيئًا من هذا. والله إن لقوله لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يُعلى. قال: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال فدعنى حتى أفكر فيه. فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يوثر من غيره)[1].

فقد أبدع النظم الحكيم فى تصوير أطوار الصراع المحتدم فى نفس الوليد، وجسده فى حركات الجوارح. وملامح الوجه، وأبرز شتات فكره وتناقضاته، إنه فكَّر وأطال التفكير بحثا عن مغمز فى الكتاب الحكيم «ثم قتل كيف قدر. ثم نظر» وكأنه قد أعيته الحيلة بعد طول الفكر. فجلس شاردا مقطب الوجه، «ثم عبس وبسر»، وأخيرا وبعد ولادة متعسرة، وطول تردد وحيرة، «أدبر واستكبر» وكأنه فى كل هذا ينازع نفسه، ويستجمع قواه الخائرة، إلى أن خطرت له خاطرة رمى بها دون وعى أو فكر، وكأنه يلقى عن نفسه عبئا ثقيلا آذاه حمله، وشلّ تفكيره. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، فأدت «ثم» دورها فى تعميق الصراع، وإبراز المعاناة، وتكاثف الحيرة، وصعوبة التخلص من آثار الهزيمة النفسية، التى خلفها سماع القرآن فى نفسه، كما أدت الفاء فى الآية الأخيرة دورها كذلك، فى الدلالة على التسرع والنزق فيما وصفّ به القرآنَ من السحر، وأنه لم يخضع قولته لفكر ونظر، ولم يقل ما قاله عن قناعة ويقين، وكأنه يسرع الهرب بعد أن ألقاها.

هذا التراخى الذى جسّد حيرة الوليد وتردده نجد مثله فى موقف المشركين، حين يلجم الله ألسنتهم بحجته فى الحوار الذى حكاه القرآن ﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٣].

فإن الجواب من شأنه أن يعقب السؤال، لا أن يتأخر عنه، خاصة إذا كان السائل هو الله العلى الكبير، ولو جرى الجواب على الظاهر، لقيل: فلم تكن

(١) جامع البيان ٢٩/ ٨٤ مطبعة الميمنية بمصر.

فتنتهم إلا أن قالوا. لكن حرف المهلة الذى اقترض موقع الفاء، دل على ما أصابهم من الحيرة والدهشة، فطال بهم الزمن قبل أن تطاوعهم ألسنتهم بالجواب، وإن كان جوابا أفضل منه السكوت، قال الألوسى فى رده على من قال بدلالة «ثم»هنا على التراخى الرتبى: (وأنت تعلم أنه لا ضرورة للعدول عن الظاهر، لجواز أن يكون هناك تراخ فى الزمان، بناء على أن الموقف عظيم، فيمكن أن يقال: إنهم لما عاينوا هول ذلك اليوم، وتجلى الملك الجبار جل جلاله عليهم بصفة الجلال، كما تنبئ عنه الجملة السابقة، حاروا ودهشوا، فلم يستطيعوا الجواب إلا بعد زمان، ومما ينبىء عن دهشتهم وحيرتهم أنهم كذبوا، وحلفوا فى كلامهم هذا، ولو لم يكونوا حيارى مدهوشين، لما قالوا الذى قالوا، لأن الحقائق تنكشف يوم القيامة)[1].

وهذا حرف التراخى يجسّد حالة الذعر والانهزام النفسى لفرعون، وخوفه من مواجهة موسى مع مكابرته ودعواه الربوبية، فتبرز تثاقله وتردده بعد أن جمع سحرته، وكأنه يرى عرشه يهتز من تحته، فلا يريد أن يتعجل نهاية ملكه، وهذا درس يجب أن يعيه أصحاب الحق، وهو أن الطاغية مهما كان مستبدا، فإنه يهتز من الداخل أمام كل صاحب صوت صادق، وإن تظاهر بغير ذلك، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ** ﴾ [طه: ٥٦-٦٤].

---

(١) روح المعانى ٧/ ١٢٣.

تأمل قوله «فجمع كيده ثم أتى»، وكيف أسرع إلى جمع كيده كما تعبر عنه الفاء، وكيف تثاقل عن الإتيان للقاء موسى، فأشعرت «ثم» بطول زمن الاستعداد وحشد الجموع، وعدم المبادرة باللقاء بعد أن جمع كيده، أفَترى فرعونَ وقومه على يقين من أن موسى ساحر؟ وأى ساحر هذا الذى تحشد له كل هذه الجموع من قوم هم أرباب صناعة السحر؟ أو ليست «ثم» تشى بحالة الذعر التى انتابت فرعون وملأه، ودفعتهم إلى المبالغة فى الحشود، والمماطلة فى المواجهة؟ وهو ما يؤكده تنازع القوم واختلافهم «فتنازعوا أمرهم بينهم» فأى تنازع هذا وهم مجمعون على حربه والقضاء عليه، ومواجهته بنفس السلاح الذى زعموا أنه يحاربهم به؟ أليس ذلك دليلا على هزيمتهم النفسية بعد أن رأوا الآيات الناطقة بتأييد الله لنبيه؟

إلى هذه النكتة يشير قول أبى السعود: (وفى كلمة التراخى إيماء إلى أنه لم يسارع إليه، بل أتاه بعد لأى، وتلعثُم)[1].

وقد سرى هذا التردد والتثاقل من نفس فرعون إلى أنفس القوم، فهم يخشون مواجهة موسى فرادى، ويطيلون فترة الاستعداد، ويتواصون بأن يجتمعوا له صفا واحدا مهما طال بهم زمن الحشد والإعداد، وجاءت «ثم» مرة ثانية لتكشف عما انطوت عليه نفوسهم من الذعر والقلق «فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا»، وكأنى بهم وهم يطيلون زمن النطق بثم قبل الدعوة إلى لقائه يستهلكون الوقت، ويتهربون من المواجهة، ويتمنون ألا تكون.

وانظر كيف يصور حرف التراخى شدة وطأة الزمن، وثقل حركته على أنفس المسلمين إثر هزيمتهم المباغتة، وما أصابهم من الدهشة والذهول فى غزوة حنين، ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا**﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦].

(١) تفسير أبى السعود ٦/ ٢٤.

فقد كشفت «ثم» فى قوله «ثم وليتم مدبرين» عن شدة وقع المفاجأة على المسلمين حين باغتهم العدو، فشتت فكرهم وجمعهم، وجسّدت حيرتهم وارتباكهم. إنها لحظات قلائل بعمر الزمن، بين مباغتة العدو للمسلمين، وتوليهم مدبرين، لكنها لحظات عصيبة، أبرز فيها حرف المهلة ما أصاب فكرهم منَ الشلل، وما غشيهم من الحيرة، فأعجزهم عن الحركة السريعة القادرة على استيعاب الحدث، وحسن التصرف فى معالجته، وهو ما صورته الكناية فى قوله «وضاقت عليكم الأرض بما رحبت»، فهو ضيق النفس، وضعف الحيلة، والعجز عن الحركة، وذهاب الفكر، ذلك الذى عكسه حرف التراخى فى صفحة الزمن.

وجاءت «ثم» مرة ثانية فى قوله «ثم أنزل الله سكينته» لتشير إلى عظم المصيبة، وشدة الابتلاء، ليمرَّ الوقت ما بين إدبارهم وإنزال الله سكينته عليهم بطيئا بغيضا، يضغط وقع الهزيمة على نفوسهم، ويعتصرهم الألم، الذى ضاعفه أنهم لم يهزموا عن قلة. إنه لون من العقاب، وقسوة فى التأديب، تلوح بها عصا الزمن، وينم عنها حرف التراخى.

وأحسب أن هذا التراخى الزمنى أقدر على تصوير ضيق النفس ومعاناتها، من القول بالتراخى الرتبى، وهما وجهان ذكرهما ابن عاشور فى قوله: (و«ثم» دالة على التراخى الرتبى، فإن نزول السكينة، ونزول الملائكة أعظم من النصر الأول يوم حنين، على أن التراخى الزمنى مراد، تنزيلا لعظيم الشدة وهول المصيبة منزلة طول مدتها، فإن أزمان الشدة تخيل طويلة وإن قصرت)[1].

فإن القول بالتراخى الرتبى مبنى على أن «أنزل» معطوف على «نصركم» وأن المسلمين كانوا منتصرين فى أول المعركة يوم حنين، وهذا العطف بعيد، والتكلف فيه ظاهر. وما قاله من التراخى الزمنى وتفسيره له هو الأليق ببلاغة النظم.

وهذا المشهد نفسه كان قد تكرر مع المسلمين فى غزوة أحد حين نال منهم المشركون ما نالوا، ونزل بهم من الغم ما نزل، فوقعت «ثم» كذلك مصورة تثاقل

(١) التحرير والتنوير ١٠/ ١٥٧.

خطوات الزمن، وإحساس المسلمين بتجمده، وهم يئنُون تحت وطأة الهزيمة: ﴿ **إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ** .. [آل عمران: ١٥٣-١٥٤].

فقد أشارت «ثم» إلى تأخر فرج الله تعالى، وطول احتباس أنفاس المسلمين تحت جُدُر الهموم المطبقة عليهم، جزاء ما خالفوا أمر رسولهم، سعيا وراء الغنائم.

وهذا السر نفسه يكمن وراء حرف المهلة الذى قال البعض بزيادته، فى قوله تعالى: ﴿ **وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا** ﴾ [التوبة: ١١٧].

فالآية تصور عقابا إيجابيا، قَاطَع فيه المجتمع المسلم ثلاثة من صادقى المسلمين، انتابتهم لحظة من لحظات الضعف البشرى، فتخلفوا بلا عذر عن الخروج للجهاد فى سبيل الله، فى غزوة العسرة، وكان العقاب قاسيا، والمقاطعة عنيفة، ألفى الثلاثة فيها أنفسهم معزولين عن الحياة والأحياء، فهجرهم أصدقاؤهم وأقرباؤهم. حتى أولادهم وأزواجهم، وظلوا يرقبون عفو الله بقلوب واجفة، يعتصرهم الحزن على حاضرهم، ويقتلهم الخوف من مستقبلهم، فدخلت ثم بين ضيق أنفسهم، وعفو الله عنهم، لتطيل زمن العقاب، وكأنها سوط التأديب، يلهب مشاعرهم، ومرارة الانتظار الطويل تغصّ بها حلوقهم.

إن هؤلاء الذين يقولون بزيادتها بين الشرط والجواب يميتون إشعاعها، ويذهبون بما أومأت إليه من إحساس المقاطعين بطول المعاناة، وقسوة العقاب، لأنه لا مهلة بين الشرط وجزائه، على ما صرح به الإمام عبد القاهر فى شرحه للإيضاح: (ولتعرى الفاء من التراخى وقع فى جَواب الشرط، نحو: إن تأتنى

فأنا أكرمك، ولم يقع «ثم» نحو: إن تأتنى ثم أنا أكـرمك، لأن الجواب من حقه أن يلحق بالشرط سريعًا»[1].

فإذا ما جـعلت التوبة من الله عليهم جوابًا للشـرط، ضاع الغرض من إبراز إحساسهم بقسوة الوحدة، وإطباق ساعـات اللـيل والنهار على نفوسهم. وشـدة ما عانوه فى نفوسهم.

إن الزمن إحساس ينبض به القلب، ويفيض به الشـعور، قبل أن يكون دقات ساعة، وحركة عقارب، فيستقصر الطويل من الزمن فى لحظات السعادة، وليالى الأنس، وتطول الثـوانى القليلة فى عـين الضائق المهـموم، لذلك تجـد الشعـراء العرب فى تعبـيرهم عن نفثات صدورهم، وفيـض شعـورهم، يقيّـدون الزمـن، ولا يطلقونه، فيـجعلون للمتكلم أو المخاطب ليلاً خاصّـاً به، يطول ويقصر فى نفسه، وذلك غـاية الصدق وقمة البيـان، حين يطوّع الزمن للتعبيـر عن انقباض النفس وانبساطها، كما تحسه فى قول امرئ القيس:

تـطـاول لـيـلـك بـالإثـمـــــــد وبـات الخـلـىّ ولم تـرقـــــــد

فلم يقل: تطاول الليل، لأن التطاول ليس فى حقيقة الزمن، وإنما هو فى إحساسه به، لذلك أضافـه إلى نفسه على سـبيل التجريد، فـحمَّل ليله شحنة من المشـاعر، امتدت به سعة وطولاً. وقريب من ذلك ما تجده فيما حكاه الله عن العزير:

﴿**فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ**﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فعبر الله عن حقيقة الزمن بحرف التراخى، لطول ما بين الإماتة والبعث، وعبر العزير عن إحساسه بالزمن، وكان صادقًا حين قال: «لبثت يومًا أو بعض يوم».

فهناك إذًا فرق بين حقيقـة الزمن، والإحساس به، فقد يكون الزمن طويلاً فى نظر شخص، وجدّ قصـير فى عين آخر، وهو فى حقيقته زمـن واحد لم يتغير، وهذا ما وسعتـه لغتنا الشاعرة، وبثّته فى حروف العطف، على نحـو يشهد للغة القرآن بالعظمة والتفرد.

(١) المقتصد فى شرح الإيضاح ٢/ ٩٤١.

وقد كان للنحاة لفتة دقيقة، تعبر عن تنوع الإحساس بالزمن، واختلاف اعتبارات النظر إليه، وإن لم تصل إلى تمامها. قال الرّضى فى احتمال النص لحرفى التعقيب والمهلة، وترك تقدير ذلك للمتكلم فيما يريد أن يلقيه فى نفس المتلقى: (ثم اعلم أن فائدة الفاء للترتيب بلا مهلة لا ينافيها كون الثانى المترتب يحصل بتمامه فى زمن طويل، إذا كان أول أجزائه متعقبًا لما تقدم. كقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً**﴾ [الحج: ٦٣]، فإن اخضرار الأرض يبتدئ بعد نزول المطر، لكن يتم فى مدة ومهلة، فجيء بالفاء نظرًا إلى أنه لا فصل بين نزول المطر، وابتداء الاخضرار، ولو قال: ثم تصبح نظرًا إلى تمام الاخضرار جاز)[1].

وتمام الجواب فى صحة تعاور الحرفين هذا الموقع، أن يقال: إن اخضرار الأرض مترتب على نزول الماء ومسبب عنه، وأن زمن الاخضرار طويل وممتد، فإذا ما قصد بيان أثر الماء فى إحياء الأرض وتوقفها عليه، وقعت الفاء لتربط الثانى بالأول ارتباط السبب بالمسبب، والمسبب يتعقب سببه، وإذا قصد الإشارة إلى تمام النعمة والانتفاع بما أنبته الله تعالى فى الأرض، دخلت «ثم» للدلالة على امتداد أثر الماء حتى يكتمل اخضرار الأرض، ويتحقق كمال الانتفاع بما أنبتت من زروع وثمار. ولذلك كله دواع وأغراض يحددها السياق، وتوجب البلاغة كلا فى موضعه، وليس المراد أن «ثم» يصح استبدال الفاء بها بالفاء فى هذا الموضع من السياق.

• مَطْل زمن المعطوف عليه

تأتى «ثم» لمطل زمن الفعل قبلها، وتكثيف حدثه واستعارة طول الزمن وامتداده لقوة الفعل وتكرره، مُفَارِقَة حقيقتها الدالة على الانقطاع، وتخلل الزمن بين المتعاطفين.

من ذلك ما ألقت به مشاعر الغضب المتأججة على لسان موسى عليه السلام، فى مخاطبته للسامرى بعد أن فَتَن قومه وأضلهم، بما أخرجه لهم من عجل

(١) شرح الكافية ٢/ ٣٦٧.

اتخذوه من دون الله إلهًا ﴿**قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَـٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفًا**﴾ [طه: ٩٧].

تأمل قوله ﴿**لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفًا**﴾ كيف ينم عن غيظ تفجر فى صورة الانتقام والتشفى من هذه الآلهة المزعومة، ففاضت هذه المشاعر على الألفاظ، ونفخت فيها من روحها، ما أثقل وزنها، ومدد حجمها، ألا ترى إلى هذاه التأكيدات المتتابعة، من القَسَم، ولامه، ونون التوكيد، وتضعيف الفعل «نحرّق» الدال على المبالغة والتكثير، وكأنه لا يكتفى بحرقه مرة، حتى يعيد إحراقه مرة ومرة، مما امتد معه زمن التحريق، فاستوجب حرف المهلة، لينقل إليك إحساسًا بالتشفى، ومعاودة الفعل وتكراره، حتى لا يبقى للمحروق أثر. فلو وضعت الفاء موضعه، لأفادت سرعة التخلص منه وإلقائه فى اليم، ويضيع ما جسّدته «ثم» من الإفراط فى التشفى والانتقام.

ومثله قوله تعالى على لسان فرعون يهدد السحرة بعد إيمانهم برب موسى: ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الأعراف: ١٢٣- ١٢٤].

فأكسبت «ثم» فعل التقطيع قوة وكثرة، ومبالغة فوق ما فيه من المبالغة بالتضعيف، وكأنه سيستمر على التقطيع حتى لا يبقى شىء يقطعه. إنه تمثيل لا تعذيب، يريك تفلت أعصاب فرعون وشدة حنقه، وخوفه من أن يكون إيمانهم هذا بداية انهيار مملكته.

هذه المبالغة تتجاوب مع نبرة التهديد التى ازدادت حدتها فى هذه السورة عما أشبهها من النظم فى سورتى طه والشعراء، وفيهما عطف التصليب بالواو، وسبق تهديده بالتقطيع والتصليب قولُه ﴿**إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ**﴾

فنسب إليهم التبعية لموسى، والتتلمذ عليه فحسب، أما فى سورة الأعراف، فقد جعلهم شركاء فى التآمر عليه، وإسقاط حكمه، وإجلاء أصحاب الأرض عن ديارهم، وتلك تُهَمٌ يحلو للناس فى كل عصر أن ينعتوها بالخيانة العظمى، التى تستوجب أقسى الأحكام، فتناغم حرف المهلة بما أضفاه من التكثير والمبالغة المُلَوِّحُ بطول زمن التصليب، مع هذا الإرعاد والإبراق فى الوعيد والتهديد.

ومثل هذا فى الغرض وقوع حرف المهلة فى قوله تعالى: ﴿**فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ**﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

فقد عهدنا القرآن يعقّب نزول الماء بالإنبات، وإخراج الثمرات، واخضرار الأرض، مستخدمًا حرف التعقيب، كما فى قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ**﴾ [إبراهيم: ٣٢] وقوله ﴿**وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ [النحل: ٦٥] لكنه هنا يتحدث عن مرحلة شق الأرض بين نزول الماء والإنبات، ويعطفها على صب الماء بحرف المهلة، مع أن تخلل الماء لتربة الأرض يعقب نزوله، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٨] فعطف ﴿**فَأَسْكَنَّاهُ فِى الأَرْضِ**﴾ بحرف التعقيب وهو الظاهر.

فإذا فتشت عن سر العدول إلى حرف المهلة وجدته راجعًا إلى اختلاف الغرض فى الآية، حيث كان المراد لفت الأنظار إلى حقيقة تبدو غائبة عنها، يرى الناس آثارها، ولا يرون أعيانها، تلك هى تطويع مسام الأرض الصلبة، التى تستعصى على قبول الماء ونفاذه فيها، فضلاً عن جذور نبات تضرب فى أعماقها كجذور النخل، حتى إن الإنسان ليعجب كيف تصل بعض الأشجار

المعمرة إلى مسافات غائرة فى الأرض تحتاج أنت إلى معدات حديثة للوصول إليها، فكيف استطاعت هذه النباتات الرخوة الضعيفة أن تشق باطن الأرض بأيسر مما تقوم به هذه الآلات مستخدمة أشد أنواع المواد صلابة؟!

لذلك لم يعبر بالإنزال، واستبدل به الصب، وهو الموضع الوحيد الذى ورد فيه هذا اللّفظ، معبَّرا به عن نزول الماء، للدلالة على قوة اندفاعه، إذ الصبّ خاص بإراقة الماء من عل، وذلك أقوى فى تدفقه ونفاذه إلى غرضه، ومنه قيل للحيات الأساور: الصُّب، وذلك أنها إذا أرادت النَّكْل انصبت على الملدوغ انصبابًا، ثم أكد ذلك بالمصدر صبّا، وعطف الشق بثم ليطيل زمن الصب، فجمع له بين القوة والكثرة، كى يلفت الانتباه إلى أثر الماء فى شق ما يستعصى فى العادة شقه من الأرض، وتهيئته لما أراد الله تعالى من نبات تقرب جذوره من سطح التُّربة، وأشجار تغور جذورها فى أعماق الأرض. أما حين كان الغرض حفظ الماء فى أعماق الأرض فى قوله تعالى ﴿**فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ**﴾ لتكون مخزونًا احتياطيّاً يستخدمه الإنسان وقت الحاجة، فقد دخلت فاء التعقيب لتدل على سرعة وصوله إلى مستودعه فى الأرض، وهو سر التعبير بالإسكان الدال على الاستقرار، ودخولُ «ثم» يفسد الغرض. لأن إطالة زمن بقائه قبل إسكانه فى الأرض تكون عاملاً من عوامل ضياع بعضه بالتبخر وغيره، مما يتنافى مع ما أراده النظم من التنبيه على رحمة الله بحفظ ما أنزله من السماء، لينتفع به الخلق وقت الحاجة. ولذلك ذيلت الآية بقوله ﴿**وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ**﴾.

ويرمز حرف المهلة إلى طول المعاناة وشدة التحمل فى قوله تعالى على لسان نوح مناجيًا ربه، شاكيًا إليه سوءَ ما صنعه قومه: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا**﴾[نوح: ٥- ٩].

فقد استنفد نوح عليه السلام كل فنون الدعوة، وهو ينتقل من طور إلى طور، ولم يتخلل ذلك انقطاع أو فتور، جرَّب معهم الإسرار بدعوته، ولم يدخر جهدًا فى ليل أو نهار، فلما أعياه ذلك انتقل إلى المجاهرة، وصبر على تكاليفها وتضحياتها، فلم يحقق بها ما أراد، ثم انتقل إلى المزاوجة فى دعوته بين الإعلان والإسرار، فما كان ذلك بأسعد حظّا من التفرد بالإسرار أو الجهار، وحرف المهلة بين هذه المراحل يمطّ زمن المرحلة قبله، وكأنه يُعذر لنبى الله نفاد صبره مع قومه، فهو لم يتعجل الانتقال من طور إلى طور، بل كان دءوبًا صبورًا، يطرق كل باب، ويبذل كل جهد. ألا ترى قوله فى الطور الأول: ﴿**لَيْلاً وَنَهَارًا**﴾ وقوله ﴿**فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلاَّ فِرَارًا**﴾ مما يدل على مداومة الدعوة وتكرارها، وأنه كلما جدد معهم دعوة، جددوا صدا وكفرانا؟!

فالتراخى الزمنى هو الذى يشعر بطول معاناة نوح، وشدة صبره على أذى قومه، وهو أحب إلىَّ من القول بالتراخى الرتبى الذى ذهب إليه الزمخشرى فى قوله: (فعل عليه الصلاة والسلام، كما يفعل الذى يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر فى الابتداء بالأهون، والترقى فى الأشد فالأشد، فافتتح بالمناصحة فى السر، فلما لم يقبلوا ثنّى بالمجاهرة، فلما لم تؤثر، ثلَّث بالجمع بين الإسرار والإعلان. ومعنى «ثم» الدلالة على تباعد الأحوال، لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من الإفراط فى أحدهما)[1].

فلست أظن أن الجمع بين الإسرار والمجاهرة أغلظ من إفراد المجاهرة، لما هو معلوم من أن المجاهرة بالدعوة تستثير المعاند، وتستنفر حميّته، وتدفعه إلى الإغلاظ للداعى وإيذائه، والتهكم به، فكيف تكون المداومة على المجاهرة أهون من الجمع بينها وبين الإسرار؟

لقد فرّ جار الله إلى القول بالتراخى الرتبى هروبًا من حقيقة «ثم» المستوجبة الانقطاع بين أطوار الدعوة، ونحن نرى أن المباعدة بحرف المهلة منظور فيها إلى بداية المرحلة، وهى طويلة طويلة بالنظر إلى المرحلة التى تليها، وهى وحدها

(١) الكشاف ٤/ ١٦٢.

القادرة على نقل الإحساس إلى القارئ بطول المجاهدة وشدة المعاناة، ولو قيل: فدعوتهم جهارًا. فأعلنت لهم وأسررت، لضاع ما أومأت إليه «ثم» واعتذرت به لنبى الله حين ضاق بهم، وجأر إلى ربه: ﴿**رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا**﴾ [نوح: ٢٦- ٢٧].

وتقف «ثم» شاهدا على عظمة الإسلام، وروحه السمحة فى صيانة أرواح غير المسلمين، وتهيئة سبل الأمان لهم فى أرضه، وتمكينهم من التعرف على حقيقة الإسلام، وتدبّر آيات الكتاب الحكيم، فى قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ**﴾ [التوبة: ٦] فقد وقعت بين الأمر بإجارة المشرك للاستماع إلى كلام الله، وبين الأمر بإبلاغه مأمنه، لتوجب عدم معاجلته واستمرار حمايته، وتمكينه من الإقامة الآمنة زمنًا رخيًا، يستطيع معه التعرف على أصول الشريعة وأحكامها، وتدبر معانى الكتاب المجيد، ومعايشة المسلمين، ليرى آثار الدين فى سلوكهم، لأنهم الترجمة الحقيقية والصورة الممثَّلة للقرآن الحكيم. وفى تذييل الآية ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ**﴾ إيحاء بأنه ليس المراد الاستماع إلى كلام الله فحسب، وإلا لكان ذلك موضع الفاء، ومعها ينتهى عهد الأمان بمجرد الاستماع، وإنما المراد إمهاله حتى يتدبر ويعى، ويعاود الاستماع، وهو مستمتع بالأمان، لأن الذى لا يعلم بحاجة إلى من يعلّمه، ويصبر عليه حتى يزيل جهله، وتلك حضارة الإسلام ورسالته التى أوجب الله على المسلمين حملها إلى البشرية، منذ أن اختتمت رسالات السماء بنبيهم الكريم، ولم يعد سواهم مؤهلاً لإشاعة نور الحق فى بقاع الدنيا، لذلك قال البيضاوى: («فأمّنه» حتى يسمع كلام الله»، ويتدبره، ويطلع على حقيقة الأمر)[1] فما فُهِم التدبُّر، والاطلاع على حقيقة الأمر إلا من نفث حرف التراخى. وقد تعاونت «ثم» مع «حتى» التى تمتاز عن «إلى» بامتداد الغاية معها، لتمتد حماية المسلمين للكافر المستجير بهم إلى تمام الاستماع، لأن «إلى» لا يدخل ما بعدها فى حكم ما قبلها، كما عليه أكثر

(١) تفسير البيضاوى ٤/ ٣٠٢

المحققين[1]، لذلك جاءت «إلى» فى قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ**﴾ [البقرة: ١٨٧]. لتدل على تعجيل الفطر، كما حثت عليه السنة المطهرة.

ومنه مجيئها فى قوله تعالى: ﴿**الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾**﴾ [الملك: ٣، ٤]. فإن «ثم» فيه دلت على شفع النظر بالتأمل وإجالة الفكر، وتدبر أحوال الخلق، وصولاً إلى الخالق، وكأن «ثم» هى الحاجز بين النظرة الحمقاء، التى لا ترى من الأشياء إلا أشكالها وألوانها، والنظرة النافذة إلى حقائق الأشياء، وإدراك غاياتها. إنها دعوة إلى التوقف بعد كل نظرة للتدبر فى أسرار الصنعة، والاستدلال بها على عظمة الصانع. يقول الزمخشرى: (فإن قلت: فما معنى «ثم ارجع»؟ قلت: أمره برجْع البصر، ثم أمره بألا يقتنع بالرجعة الأولى، وبالنظرة الحمقاء، وأن يتوقف بعدها، ويُجِمَّ بصره، ثم يعاود ويعاود، إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة، فإنه لا يعثر على شىء من فطور)[2].

• الدلالة على سعة الرحمة

كثيرًا ما يرمز حرف التراخى إلى سعة رحمة الله، وعظيم عفوه، حين يمهل المذنب، فلا يعاجله بالعقوبة، ويفتح أمامه أبواب الرجاء، وإن طال أمد المعصية. قال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [النساء: ١١٠] فإن عطف الاستغفار المنبئ عن التوبة والإقلاع عن الذنب بحرف المهملة، وتعقيب ذلك بقوله «يجد الله غفورا رحيما»، فيه إشارة إلى أن الله تعالى يسع برحمته كل من أقبل عليه، واستمطره عفوه، وأنه لا يوصد أبواب التوبة عن عبده، مهما أوبق نفسه بالمعاصى، ولئن كان ذلك شأنه مع العصاة الذين طال عصيانهم، فلأن تكون رحمته للمسارعين إلى التوبة أعظم. إنها يد الله ممتدة للعصاة، لا يقبضها حتى يملوا.

---

(١) ينظر الجنى الدانى ٣٨٥ (٢) الكشاف ٤/ ١٣٥.

وقد توالت الآيات مؤكدة على هذا المعنى، كما فى قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النمل: ١١] وإن كانت الرحمة هنا أعظم وأوسع، بدلالة توالى التوكيدات فى وعد الله تعالى بالمغفرة والرحمة، ومقابلة تراخى عبده فى التوبة، بمسارعته إلى المغفرة، وهو مدلول الفاء فى الجواب، وذلك لأن درجة التائب هنا أعظم، فهو لم يقلع عن المعصية فحسب، ولكنه بدَّل حسنا بعد سوء، فذهبت حسناته بسيئاته، وبقى له فضل الله عظيما.

وعلى نحو منه فى الدلالة والدرجة، قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النحل: ١١٩] فهم مع طول زمن عصيانهم المعبَّر عنه بحرف التراخى قبل التوبة، وتأكيده بالظرف «من بعد ذلك»، فإن الله عظَّم هذه التوبة، وقابلها بمزيد من الغفران والرحمة، فحشد النظم الكريم من أدوات التوكيد والمبالغة ما يجلّل ذنوب التائبين ولو أتوا بقراب الأرض خطايا، ألا ترى إلى أداتى التوكيد: إنَّ واللام، واسمية الجملة ولفظ الرب، المشعر ببالغ العطف والحنّو، وإضافته إلى المخاطب، الدالة على الرضا والقبول، وصيغتى المبالغة فى صفتى الغفور الرحيم!! إن هذا الفيض الغامر من الرحمة استحقه التائبون مع طول عصيانهم، لأنهم عصوه عن جهالة، لا عن إصرار وهم يعلمون، ثم لم يكتفوا بالتوبة، بل شفعوها بالعمل الصالح، وبدلوا سيئاتهم حسنات، وهو ما دل عليه بقوله: «وأصلحوا».

ومثله قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الأعراف: ١٥٣] غير أنه عطف الإيمان على التوبة، والإيمان والإصلاح متلازمان. ولعلك تدرك سعة عفو الله وشمول رحمته مع هؤلاء الذين طال عصيانهم، إذا علمت أن الآية هنا تتحدث عن توبة عبدة العجل من بنى إسرائيل، حيث جاءت بعد قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ**﴾ [الأعراف: ١٥٢]

فإذا كان هذا عفو الله مع التائبين من أعظم الذنوب، فكيف تكون رحمته مع من تاب من قريب؟! يقول صاحب التحرير والتنوير: (وحرف «ثم» هنا مفيد للتراخى، وذلك إلجاء إلى قبول التوبة، ولو بعد زمان طويل، مملوء بفعل السيئات. وقوله «من بعد» تأكيد لمفاد المهلة، التى أفادها حرف «ثم». وهذا تعريض للمشركين بأنهم إن آمنوا يغفر لهم، ولو طال أمد الشرك عليهم)[1].

● **الإذلال والتحقير**

يكثر وقوع «ثم» بين مواقف الحشر، لتصوير إحساس أهل الموقف بطول الزمن والتعبير عن شدة ما يعانونه حينا، وللاستهانة والتحقير، بحبس الموقوفين، والإعراض عنهم، وإطالة زمن ترقبهم حينا آخر. من هذا قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ**﴾ [الأنعام: ٢٢] وقوله: ﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ**﴾ [يونس: ٢٨] وقوله: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ**﴾ [سبأ: ٤٠] فإن فى إطالة زمن الانتظار بين حشر المشركين وسؤالهم قصدا إلى إغفالهم، والإعراض عنهم، تحقيرا لهم وإذلالا. وقد كانوا الكبراء والسادة فى الدنيا، وهو لون من العقاب يضاف إلى مرارة الانتظار وترقب نزول العذاب، وذلك ما أفاده ابن عاشور عند تفسيره للآية الأولى: (وعطف «نقول» بثم، لأن القول متأخر عن زمن حشرهم بمهلة، لأن انتظار المجرم ما سيحل به أشد عليه، ولأن فى إهمال الاشتغال بهم تحقيرا لهم. وتفيد «ثم» مع ذلك الترتيب الرتبى)[2].

غير أن جمعه بين دلالتها على التحقير المفادة بالتراخى الحقيقى، وبين التراخى الرتبى هو من الجمع بين الحقيقة والمجَاز، فضلا عن تصادمهما، لأن التراخى الرتبى لا يصار إليه إلا إذا استحال التراخى الزمنى، ويكون عدم صحة المهلة

(١) التحرير والتنوير ج٩ الكتاب الأول ١٢٠.
(٢) التحرير والتنوير ٧/ ١٧٤.

الحقـيقيـة قرينة المجاز والـتراخى الزمنى هنا ممكن، وبه دلّ حـرف التراخى على التحقير، فلا مبرر للعدول إلى التجوز.

ومنه قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ**﴾ [النحل: ٨٤] حيث يستمع الله إلى شهادة الشـهداء، ويُعرض عن المشهود عليهم، ولا يعلنهم بعدم الاستمـاع إليهم، بل يتركهم يترقبون سؤالهم، يعتصـرهم ألم الانتظار، وإذلال الإهمال، ثم يلقيـهم بعد ذلك فى النار دون أن يأذن لهم بالخطاب، ليكون حـبسـهم فى الموقف بعـد سماع الـشهداء غـاية فى التحقير. وهذا هو سـر العدول عن الواو أو الفاء -وهما الأصل فى هذا الموقع- إلى حرف التراخى.

ومما هو ذاهب إلى هذا الغرض ما أومـأت به «ثم » إلى طوله حبس الغالّ يوم القيامة، قـبل أن يوفّى جزاءه، للتشهير به، وفضـحه على رءوس الأشهاد، وهو يحمل على ظهره ما غلّه فى دنياه، إنْ بقرةً لها خوار، أو بعيرا له رغاء، أو شاة لها ثغاء. وذلك فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٦١].

فإذا كان الغرض من الإتيـان بالغال حاملاً ما غلَّه قُصد به فـضحه أمام الخلق يوم المشهـد العظيم، ففى إبقـائه على هذه الصورة المزرية زمنا طـويلا حتى يراه أهل الموقف جميعا غاية التهكم والازدراء.

وإمعانا فى التحـدى، وعدم المبالاة بكيد الخصوم، والاستهانـة بجمعهم، أمر الله رسوله أن يخـاطب المشركين بما جاء فى قـوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ**﴾ [الأعراف: ١٩٤، ١٩٥].

فقد نشر حرف المهلة جوا من الاستخفاف وعدم المبالاة بكيد مَنْ دعاهم إلى كيده، ثقة فى معيّة الله تعالى، ويقينا بأنهم لن يستطيعوا كيده بعد أن عصمه الله منهم، لذلك أرخى لهم العنان، ليجمعوا كل ما يستطيعون جمعه من الأنصار والشركاء، وأملى لهم بما يمكنهم من حشد كل طاقاتهم قبل أن ينازلوه: «قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون»، وزيادة فى التحدى والاستخفاف، دخلت الفاء فى قوله «فلا تنظرون» إشارة إلى أنه يمهلهم ليستعدوا له، ولا يستمهلهم إذا ما أكملوا استعدادهم، وجمعوا جموعهم، وقرروا الإيقاع به. أترى احتقارا وازدراء أشد من هذا الاحتقار؟!

ومثله ما تحدى به نوح عليه السلام قومه، فيما قصّه الله تعالى فى كتابه: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ** ﴾ [يونس: ٧١].

ولما كان العناد فى قوم نوح أشد، وتماديهم على الكفر والاستكبار أطول زمنا مما بين محمد عليه السلام وقومه، جاء التحدى هنا أشد، والإملاء للمعاندين أرخى وأوسع، وكأن النظم الحكيم يقسِّم سنوات الرسالة، وحجم المعاناة على ألفاظ التحدى. لقد مهّد نوح لتحديه بإخلاص توكله لربه، بما يعنى أنه يقوى عليهم بما يستمده من قوة الله، ويستعين على مكرهم بخير الماكرين، وقد زاد نوح على طلبه دعوة شركائهم مطالبتَهم بإجماع أمرهم، وهذا غاية الاستخفاف والاستهانة، حين يوجههم إلى حشد قواهم، ويهديهم إلى عوامل النصر والتغلب عليه، المتمثلة فى وحدة الكلمة، ووضوح الرؤية والهَدف «ثم لا يكن أمركم عليكم غمة» فإذا ما تأكدوا من تمام الاستعداد، وهيأوا لأنفسهم وسائل الانتصار، فليعجِّلوا الإيقاع به.

أرأيت محاربا باسلا، يرسم لخصمه طرق التقوى عليه، ويرشده إلى العوامل التى تمكنه من تحقيق أهدافه؟ إنه هذا الذى جاء على لسان نوح، وقد بلغت «ثم»

بهذا التحـدى مبلغا من الاستهانة لا ينطق به إلا من كـان على مثل ثقة نوح فى عون من أرسله. فقـد أمهلتهم أولا لحشد قـواهم وقوى آلهتهم، وأمـهلتهم ثانيا ليراجعوا خططهم وأهدافـهم، حتى لا يقدموا لمنازلته، وأمرُهم غـمة، وأمهلتهم ثالثا ليخـتاروا من الوقت ما يرونه مناسبـا لإنفاذ أمرهم. وقد أوجز الزمـخشرى هذا التحدى والاستهانة فى قوله: «فأجـمعوا ما تريدون من إهلاكى، واحتشدوا فيه، وابذلوا وسـعكم فى كيـدى، وإنمـا قال ذلك إظهـارا لقلـة مـبالاتـه، وثقـة بما وعده ربه، من كلاءته وعصمته إياه، وأنهم لم يجدوا إليه سبيلا»[1].

ومما يمت إلى ذلك بسـبب قوله تعـالى: ﴿**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ**﴾ [الحج: ١٥].

فانظر كيف تلاحم فعل المدّ، بما تضـمنه من طول المكان الممدود إليه السبب، مع طول الزمان المعبّر عنه بحرف التراخى، لتتعاون سعة الزمان والمكان فى إرخاء العنان لهذا المتبرم الخارج عن طاعة ربه، وتـتيحا له من هذا الفضاء الواسع ومن امتداد الزمن، ما يستنفد معه كل حيلة، ويسخر كل إمكاناته، فإنه لن ينتهى بعد كل هذا إلا إلى حتفه، ولن تخسر الدنيا بهلاكه شيئًا.

● **التلطف والمصانعة**

تشـعر «ثم» بإحكام الحـيلة، والمبالغـة فى الحذر، والتلطف فى الوصـول إلى الغرض، فى مـواضع عديدة من الذكر الحكيم، فـيبرز حرف المهلة دقـة الترتيب والاحتـيال فى البلوغ إلى الهـدف، وينزلهما منزلة طول الـزمن، لما أن مثل هذا الإحكام من شـأنه أن يحتـاج إلى طول الوقت. ومثـاله قوله تعـالى فى وصف المنافقين، وهم أكثر الناس قدرة على المخادعة والمداهنة ﴿**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَـدٍ ثُمَّ انصَـرَفُوا صَـرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُـم بِأَنَّهُـمْ قَـوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٧].

(١) الكشاف ٢/ ٢٤٥.

فالمنافق بطبعه ينفر من كل دعوة إلى الحق، ويفر من تكاليف الوحى، فرار الحُمُر من الأسد، كما صوّره قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١]، والآية التى معنا تكشف أثر نزول السورة من القرآن فى نفوس المنافقين، بما تَنم عنه أفعالهم وحركات جوارحهم، فهم يسترقون النظرات، ويتحيّنون الفرصة للانصراف حتى يتسللوا من بين الصفوف دون أن يشعر بهم أحد، فكان عطف الانصراف بحرف المهلة، إيذانا بالاحتيال والتلطف فى محاولتهم، ومخاتلة القوم، حتى لا يحسوا بانصرافهم، وهى بحساب الزمن لحظات خاطفة، لكنها بحساب الحذر المتوجس زمن طويل، فجسّد حرف التراخى هذه المداهنة، والمبالغة فى الحذر والتخفى، فى البعد الحسى المتمثل فى طول الزمن بين النظر والانصراف، وسواء فى ذلك أن يكون المراد الانصراف بالقلب عما دعوا إليه من الحق والهدى، أم انصرافا بالقالَب عن مجلس رسول الله الذى أنزلت فيه السورة. يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية: (إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ، «نظر بعضهم إلى بعض»، أى تلفتوا هل يراكم من أحد؟ «ثم انصرفوا» أى تولوا عن الحق، وانصرفوا عنه، وهذا حالهم فى الدنيا، لا يثبتون عند الحق، ولا يقبلونه، ولا يفهمونه، كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١] وقوله تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٦، ٣٧])[1]. لاحظ كيف قرن الآية بموضعين، كل منهما ينطق بسرعة التولى والإعراض، كما فى تشبيههم بالحمر المذعورة تفرّ من الأسد، وكما فى التعبير «مهطعين». مما يدلك على أن المهلة هنا، أريد بها تحيّن الفرصة للتسلل فى غفلة من الجالسين.

ومما دلت فيه «ثم» على التلطف والمبالغة فى إحكام الحيلة، قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام، حين احتال على استبقاء أخيه بتسريقه، ودسّ الصواع

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٠٣.

فى وعائه، وإخراجه منه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦].

فلم يمض من الوقت بين التنقيب فى أوعية إخوته، والوعاء الذى دُسَّ فيه الصواع، ما يستوجب حرف المهملة، لكنه التطلف، والتمويه على المشاهدين، بتأخير البحث فى الوعاء المنشود، ومحاولة الانصراف عنه، لإظهار اليأس من وجود ما يبحثون عنه. كل هذه المصانعة والحذر من أن يتسرب الشك إلى نفوس الإخوة لو بدءوا به وتعجلوا استخراجه، هو الذى بسطه حرف المهلة، وأبرزه فى صورة زمن ممتد، ألا ترى كيف عدل النظم الكريم من أن يقول: أخرجها إلى «استخرجها» فأطالت هذه الزيادة فى الحروف زمن البحث، ومطَّته مبالغة فى إعمال الحيلة؟! هذا إلى جانب ما يصوره حرف المهلة من الخوف والترقب الذى كان يملأ نفوس إخوة يوسف، وهم يتابعون البحث فى أمتعتهم، انتظارًا لما يسفر عنه، فيضغط الزمن على نفوسهم، ويطول قصيره فى أعينهم.

وأحسب أن هذا هو السر فى قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩] فهؤلاء المحرّفون لصوص كلمة يتحيّنون الفرصة فى التخفّى، واستراق الأعين والعقول عند عرضها، وهذا هو الذى يومئ إليه حرف التراخى، معبرًا بطول الزمن بين الكتابة بأيديهم، والزعم بأنه كلام الله، مع أنهما مقترنان فى الحقيقة عن الاحتيال، والمصانعة، وتزيين القول، وإحكام الحيلة، حتى لا ينكشف أمرهم، ويظهر باطلهم. فتُنزَّل المداهنة وخداع المشترى منزلة البعد الزمنى، للإشعار بإحكام الحيلة وإتقانها. ألا ترى إلى قوله تعالى يصف هذه المخادعة واستهواء الأسماع: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨] وربما يكون هذا

الذى ذهبت إليه حملا للتراخى على الحقيقة أقرب من القول بالتراخى الرتبى الذى صرح به أبو السعود فى قوله: (و «ثم» للتراخى الرتبى، فإن نسبة المحرّف والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحا أشد شناعة من نفس التحريف والتأويل)[1] فإن هذا القول يجعل التحريف جناية، ونسبة المحرَّف إلى الله جناية أشنع، مع أنهما جناية واحدة ممتدة، لأن التحريف واقع فى كلام الله بداية، ولا يسمى تحريفًا مالم يكن منسوبا إلى الله، إنما التراخى فى إظهار ما حرّفوه، دليل على أنهم يتقنون الصنعة، ويدارون عوارها قبل ترويجها، ويتحينون الفرصة لتسويقها.

* * *

obeikan.com

معانيها المجازية ومواقعها

• تحرير القول بالمجاز

إن أعظم مواقع «ثم» فى الكتاب الحكيم، ما جازت فيه معانيها الوضعية، إلى معان أخرى، تكسوها رداء الزمن، وتفيض عليها من البعد الحسى ما ينفخ فى روحها، ويملؤها حركة ونماء. وقد كان جار الله الزمخشرى أول من افتض عذرة معانيها المجازية، وأحس بأنفاس الزمن تسرى بين الأحداث المتواصلة، فتمطها، وتباعد بينها، لتبرز التفاوت فى الأوصاف والأحوال، وتجسّد أغراض الكلام ومراميه.

نعم. لقد سبقت الزمخشرى إشارات سريعة، ولمحات خاطفة، يمكن أن تكون قد مهّدت لما أسماه التراخى الرتبى، وأهمها -فيما عثرت عليه- قولُ الراغب الأصفهانى فى المفردات: («ثم» حرف عطف يقتضى تأخر ما بعده عما قبله، إما تأخيرًا بالذات، أو بالمرتبة، أو بالوضع، حسبما ذكر فى قبلُ وفى أوّل)[1].

وما ذكره فى قبل، هو قوله: (قَبْلُ: يستعمل فى التقدم المتصل والمنفصل، ويضاده بعدُ... هذا فى الأصل، وإن كان يتجوز فى كل واحد منهما، فقبلُ يستعمل على أوجه، الأول فى المكان، بحسب الإضافة، فيقول الخارج من أصبهان إلى مكة: بغداد قبل الكوفة، ويقول الخارج من مكة إلى أصبهان: الكوفة قبل بغداد. والثانى فى الزمان، نحو: زمان عبد الملك قبل المنصور. قال: ﴿**فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ**﴾ [البقرة: ٩١]. الثالث فى المنزلة، نحو: عبد الملك قبل الحجاج. الرابع فى الترتيب الصناعى، نحو: تعلُّم الهجاء قبل تعلُّم الخط)[2].

---

(١) المفردات ١١.

(٢) المفردات ٣٩١.

فليس الترتيب والتـراخى فى حرف المهلة، مقصورين على الـترتيب والتراخى الزمـانى، بل هناك ترتيب وتراخ فى المنزلة، وهـو ما قـال به الزمـخشـرى فى المواضع التى يستعصى فيها الترتيب الحقيقى، ثم إن الترتيب فى الرتبة ضرب من التجوز، على ما صرح به الراغب فيما ناظر به لحرف المهلة، من الظرف «قبلُ». وربما كـانت مثل هذه الإشـارة هى التى فجّـرت عند الزمخـشرى ينابيع المعـانى المجازية، التى استخرجها لحرف التراخى.

توسّع جار الله فى التراخى المفـهوم من حرف العطف، ليشـمل به التباين فى الصفات، والتبـاعد فى الأحوال والمنازل، واستخرج من ذلـك أسرارًا للإعجاز، لم يقع عليها قبله أحد.

● الفرق بين الاستبعاد والتراخى الرتبى

أدار الزمخشرى أمر المجاز فى «ثم» حول غرضين، فرّق بينهما بوعى ووضوح كاملـين، وإن اختلطا على بعض من تابعـه، فأفـرغهـما إفـراغًا واحـدًا، وهما الاستبعاد، والتراخى الرتبى.

ومفهوم الأول عنده: هو التباعد بين أمـرين يمتنع ترتب ثانيهما على أولهما. ومفهوم الثانى: التفاوت بين المتعَاطفين فى المنزلة، فيجعل المعطوف أرفع رتبة من المعطوف عليه، وليس بينهما من التناقض ما فى الاستبعاد.

وقد أحسن الدكتـور أبو موسى تتبع الزمخشرى فى الموضـعين سالفى الذكر، وميَّـز بينهما، حين قـال: (أما «ثم» فإننا حين نـتابع تحليله لمواقعهـا فى الكتاب العزيز يتضح لنا أصلان يرجع بمعنى «ثم» إليهما: الأول الاستبعاد، وذلك يكون إذا كان ما بعد «ثم» أمرًا مـستبعد الوقوع بالنسبة لما قـبلها، أو بعبارة أخرى: إذا كان ما قبل «ثم» من الأحداث والأفعال مهيئًا لعدم حصول ما بعدها...

الثانى بيان البـعد بين الأمرين، وهذا غير الاستبـعاد، إذ المراد أن الأمرين من جنس واحد، ولكن مـا بعد «ثم» أعلى مرتبة فى هذا الجنس، وأبلغ مما قـبلها،

فليس بين الأمرين منافاة، كما فى الاستبعاد، وإنما بينهما تفاوت، وهما من جنس واحد)[1].

هذه المنافاة بين المتعاطفين قائمة فى معظم ما ذكره الزمخشرى من الاستبعاد، وإن كان قد أطلقه نادرًا على مَا لا منافاة فيه بين الأمرين، كقوله تعالى: ﴿**يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمئذ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِى الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ**﴾ [المعارج: ١١-١٤]. قال الزمخشرى: («ينجيه» عطف على «يفتدى»، أى يود لو يفتدى، ثم لو ينجيه الافتداء، أو من فى الأرض. وثُم لاستبعاد الإنجاء، يعنى: تمنى لو كان هؤلاء جميعًا تحت يده، وبذلهم فى فداء نفسه، ثم ينجيه ذلك. وهيهات أن ينجيه)[2].

فإن الاستبعاد هنا مفهوم من قرائن أخرى، لا من المنافاة بين الافتداء والإنجاء، إذ الشأن لو أن الافتداء قُبِل لكان سبيلا إلى الإنجاء، ولكن لأمرين كليهما من المحالات، فلا هو يملك افتداء نفسه بمن ذكر من أقربائه وأهل الأرض جميعًا، ولا ذلك على فرض وقوعه بمنجيه.

المهم أن الحاجز الذى أقامه الزمخشرى بين الغرضين: الاستبعاد والتراخى الرتبى تهاوى عند البعض حتى لم يعودوا يفرقون بينهما، مما دعا قطب الدين التحتانى إلى التنبيه على هذا الخلط، عند قوله تعالى: ﴿**فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِى اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾ [البقرة: ٧٣، ٧٤] فذكر قول صاحب الكشاف: («ثم قست» استبعاد القسوة بعد ما ذكر ما يوجب لين القلوب ورقتها)[3] وعلق عليه بقول: (يعنى أن «ثُم» موضوعة للتراخى فى الزمان، ولا تراخى ههنا، إذ قسوة قلوبهم فى الحال، لا بعد زمان، فهى محمولة على الاستبعاد مجازًا، أى يبعد من العاقل قسوة القلب بعد ظهور تلك الآية العظيمة،

(١) البلاغة القرآنية ١٩٠.
(٢) الكشاف ٤/ ١٥٨.
(٣) الكشاف ١/ ٢٩٠.

كقولك لصاحبك: قد وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها. ومن الناظرين فى هذا الكتاب من حمل هذا الاستبعاد على التباعد فى المرتبة، وليس بذلك، فإن معناه أن مدخول «ثم» أعلى، كما فى قوله: «ثم استوى»[1]، والمراد ههنا أن مدخولها بعيد عن الوقوع)[2].

والغريب أن الشهاب الخفاجى وهو من الأئمة المدققين، يرفض أن يكون هناك فرق بين الاستبعاد والتفاوت الرتبى. فيقول فى تفسيره لهذه الآية: (وما ذكر من الفرق بين التفاوت فى الرتبة والاستبعاد ليس بشىء، لأنه بعد رتبى أيضًا، إلا أنه يعتبر فى الثانى العلو)[3] لكنه يقول فى موضع آخر: (والاستبعاد غير التفاوت الرتبى، بل عُدَّ الشىء بعيدًا غير مناسب هنا لما عطف عليه، كما تقول: تسىء إلىَّ، ثم ترجو إحسانى، فتنزل البعد المعنوى منزلة البعد الزمانى)[4].

وهو -كما ترى- تناقض ظاهر، فهل عاد فى آخر حاشيته عما قاله فى أولها؟ أو أنه يقصد إلى البعد المعبر عنه بحرف المهلة بعد مجازى فيهما معا؟ ربما.

- **الاستعارة بين معنى الحرف ومدخوله**

للزمخشرى فى استعارة الحروف جهود رائدة، كان من ثمارها هذا الجدل الطويل، الذى نراه فى كتب البلاغيين حول إجراء الاستعارة فى معنى الحرف أو فى مدخوله، وكلا الفريقين يعتمد فى فهمه على نصوص من الكشاف، يدل ظاهر بعضها على إجرائها فى معنى الحرف، وظاهر بعضها الآخر على إجرائها فى مدخوله. يقول الدكتور أبو موسى: (أما الاستعارة فى الحرف فلم يلتفت إليها كثير من البلاغيين قبل الزمخشرى، وإن وجدت إشارات موجزة تومئ إليها فى كتب التفسير، وإذا كان البلاغيون متفقين على أن الاستعارة فى الأفعال والمشتقات تؤول إلى مصادرها، فإنهم اختلفوا فيما تؤول إليه الاستعارة فى

(١) يشير إلى قوله: «هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعًا ثم استوى إلى السماء» [البقرة: ٢٩].
(٢) حاشية قطب الدين التحتانى على الكشاف ١/ ٢٤٠.
(٣) حاشية الشهاب ٢/ ١٨٦.
(٤) السابق ٨/ ٢٧٤.

الحرف، فقال السكاكى: إن الاستعارة فى الحرف تابعة للاستعارة فى متعلقه، وفسر المتعلق بقوله: «والمراد بمتعلقات الحروف، ما يعبر بها عنها، عند تفسير معانيها، مثل قولنا: «مِن» معناها الابتداء، و«فى» معناها الظرفية. . . . وكان السكاكى يميل إلى تجريد الكليات، وهذه روح علمية مستقيمة، ولكن فاتها أن تدرك فى هذا الموقف أن الذى يفهم من التعبير ليس هو ذلك التشبية والتصوير، الذى يجرى فى المعانى التجريدية للحروف، وإنما هو تصوير يجرى فى الأفق القريب لمدلول العبارة، فقولك: زيد فى نعمة، تصوير للنعمة فى صورة ظرف يحيط بزيد، ويغمره من جهاته، فيؤكد معنى فيوض النعمة التى هو فيها، والتى ملأت جوانب نفسه وحياته، ولهذا رأينا الخطيب وابن يعقوب يقرران أن الاستعارة فى الحرف تابعة لتشبيه يجرى فى مدخول الحرف، أى فى مجروره. . .

وهذان الوجهان يمكن أن نرجع بهما معًا إلى كلام الزمخشرى، فقد ذكر فى بعض الصور ما يفيد أن التشبيه والاستعارة يجريان فى مدخول الحرف، كما ذكر فى غيرها أن الاستعارة تجرى فى الحرف، وأنه مستعار كاستعارة الأسد للشجاع)[1].

وكأنى بأستاذنا يقصر الحديث فى هذا التحقيق على استعارة حروف الجر، بدليل قوله «فى مدخول الحرف، أى مجروره» وهو رصد دقيق لكلام الكشاف، وفهم صحيح لمذهب السكاكى، لكن فى إطار استعارة حروف الجر وحدها، أما فيما عداها، فإن السكاكى، خالف تطبيقُه تنظيرَه، فهو يقول عند التعقيد: (وفى الحروف متعلقات معانيها، فتقع الاستعارة هناك، ثم تسرى فيها، وأعنى بمتعلقات الحروف ما يعبر عند تفسيرها، مثل قولنا «مِنْ» معناها ابتداء الغاية، و«إلى» معناها انتهاء الغاية، و«كى» معناها الغرض. .) إلى أن يقول: (وعلى هذا لا تستعير الحرف إلا بعد تقدير الاستعارة فى متعلق معناه، فإذا أردت استعارة «لعل» لغير معناها قدرت الاستعارة فى معنى الترجّى، ثم استعملت

(١) التصوير البيانى ٢٢٣-٢٢٥ بتصرف.

هناك لعل)[1] لكنه عند التطبيق، وحين لا تظهر الاستعارة فى معنى الحرف يجريها فى مدخول الحرف، فيقول: «فتشبه حال المكلف الممكّن من فعل الطاعة والمعصية، مع الإرادة منه أن يطيع باختياره، بحال المرتجى المخير بين أن يفعل وألا يفعل، ثم تستعير لجانب المشبه لعل، جاعلا قرينة الاستعارة علم العالم بالذّات، الذى لا تخفَى عليه خافية، يعلم ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، قائلا: خلق الله الخلق، لعلهم يعبدون، أو لعلهم يتقون، وعليه قول رب العزة علام الغيوب: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ٢١]. ونظائره»[2].

هذا الكلام مستمد من الكشاف، وهو ظاهر فى إجراء الاستعارة فى حال المشبه والمشبه به، لأن تشبيه الإرادة بالترجى مما لا يظهر معناه، ولا يتوصل إلى الغرض إلا إذا أجرى التشبيه فى حال مدخوله، وذلك ما نبه إليه السيد الشريف فى حاشيته على الكشاف، فقال: «وأيضا ليس تظهر المشابهة بين الإرادة والترجى إلا باعتبار حال متعلقهما، أعنى المكلف والمترجَّى منه، فذكر التشبيه بين حاليهما، لتظهر تلك المشابهة فى أن متعلق كل من الإرادة والترجى يترجح، أى يتردد بين أن يفعل، وألا يفعل، مع رجحان جانب الفعل»[3]. وهذا هو الذى كان يحكم الزمخشرى، فيجرى الاستعارة فيما يرى أنه يبرز الغرض المسوق له الكلام، سواء كان متعلق معنى الحرف أم مدخوله.

أما فى استعارة حرف التراخى للدلالة على التباعد فى الأحوال والمراتب، فإن الزمخشرى كان يجرى الاستعارة فى معنى الحرف، فى كل ما صرح فيه بالتجوز، لوضوح المشابهة بين المعنيين: الحقيقى والمجازى، ففى قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٤٥- ٤٦].

---

(١) مفتاح العلوم ٢٠٩ (٢) السابق ٢١٠

(٣) حاشية السيد على الكشاف ١/ ٢٣١

يقول صاحب الكشاف: «فإن قلت: ثم فى هذين الموضعين كيف موقعها؟ قلت: موقعها لبيان تفاضل الأمور الثلاثة، فإن الثانى أعظم من الأول، والثالث أعظم منهما، تشبيها لتباعد ما بينهما فى الفضل، بتباعد ما بين الحوادث فى الوقت»[1]. وهو واضح فى أنه يجرى الاستعارة فى معنى حرف المهلة، تجوزا بالتباعد فى الزمان عن التباعد فى الفضل. ويقول فى قوله تعالى: ﴿**لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ**﴾ [الحج: ٣٣]، («ثم» للتراخى فى الوقت، فاستعيرت للتراخى فى الأحوال، والمعنى: أن لكم فى الهدايا منافع كثيرة فى دنياكم، وإنما يعتدُّ الله بالمنافع الدينية. قال سبحانه: ﴿**تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ**﴾ [الأنفال: ٦٧]. وأعظم هذه المنافع، وأبعدها شوطا فى النفع «محلها إلى البيت العتيق»[2].

أولا: مجاز الاستبعاد

دلالة «ثم» على الاستبعاد دلالة مجازية، يشبه فيها البعد المعنوى بالبعد الحسى، المقدر بالزمن، وهو لا يقع إلا فى عطف الجمل، لأن المستبعَد هو وقوع مضمون الجملة المعطوفة. بالنظر إلى ما عطفت عليه، ولا يتصور ذلك فى عطف المفردات، لأن المتعاطفات فيها معمولات لفعل واحد، ولا تباعد مع اتحاد العامل. يقول الشريف الرضى: «وقد تجىء فى الجمل خاصة لاستبعاد مضمون مابعدها عن مضمون ماقبلها، وعدم مناسبته له، كما ذكرنا فى قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ**﴾ [المؤمنون: ١٤]. وكقوله: ﴿**خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأنعام: ١]، فالإشراك بخالق السموات والأرض مستبعد غير مناسب، وهذا المعنى فرع التراخى ومجازه»[3].

ويلاحظ أن الرضى يطلق الاستبعاد على ما يشمل التراخى الرتبى، كغيره ممن يخلط بينهما، بعد أن ميّز بينهما الزمخشرى تمييزا دقيقا. ولكى تعرف مدى ثراء

(١) الكشاف ٣/ ٩٤ (٢) الكشاف ٣/ ١٤
(٣) شرح الكافية ٢/ ٣٦٧

حرف المهلة فى مواقعه من الذكر الحكيم فاعرف أنها لم ترد فيه عاطفة لاسم مفرد على اسم مفـرد، وهو العطف الملازم للحقيقـة. وذلك ما أحصاه أستـاذنا الشيخ عضـيمة -رحـمه الله- حـين قال: (جاءت «ثم» فى (٣٣٠) مـوضعـا فى القرآن الكريم، وجاءت فى هذه المواضع عاطفة للجـملة، وللفعل المنصوب، والمجزوم، وللجار والمجرور، فلم تقع فى القرآن عاطفة اسما مفردا على اسم مفرد)[١].

وإذا كان الـشيخ قد سـها فى عَـدّه عن خمـسة مـواضع، زيدت فى معـجم الأدوات والضمائر فى القـرآن الكـريم[٢]، فإنه كان أكثـر دقـة فى رصـده لنـوع ما عطف بها. وحين تكون جميع هذه المواضع من عطف الجمل أو الأفعال، فإن ذلك ينبئك عن تكاثف دلالاتهـا، وتزاحم أسرارها. وخاصة فيـما حفت به من ضروب المجاز وهو كثير فى الذكر الحكيم.

والاستبـعاد -فيما قـرره رجالات البيان- هو ما يحكم الـعقل والطبع والعادة ببعد وقوع المعطوف، واسـتحالة ترتبه على ما شأنه أن يمنع وقوعه، فـيشبه بعد الوقوع بالبعد الزمانى، لما أن الزمن أقرب إلى الحس، وأقدر على تجسيد التناقض بين المتعاطفين.

• أغراض الاستبعاد

الاستبعاد ضربان: تكذيبى وتوبيخى

الأول: الاستبـعاد التكذيبى ويكون فيما لم يقع من الأفعـال المستبعدة، لإنكار وقوعه، وتوبيخ من يـدعيه، أو يتوهم إمكانه، بما يبرزه من تنـاقض بين المقدمة والنتيجة، فـيكون بمثابة دليل على سفَه المدعى وغفلته، وغيـاب وعيه، كما تراه فى قوله تعـالى ردا على عبدة المسيح عليـه السلام: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾ [آل عمران: ٧٩].

(١) دراسات لأسلوب القرآن ق١ ج٢/ ١٠٢.

(٢) معجم الأدوات والضمائر ٢٢٢.

obeikan.com

فقد حشد النظم الحكيم فى المقدمة من الأسباب ما يستحيل معه فى حكم العقول والطباع أن ينتج ما ادعوه من ربوبية المسيح، فهو بشر، والبشرية تناقض الألوهية، وهو يتقلب فى نعم الله تعالى التى يستحيل معها التمرد على المنعم، وما أوتيه من الكتاب شاهد على من أرسله، والنبوة رسالة، ولن يكون الرسول إلها، ثم إن الله وهبه من الحكمة ما لا يقع معه فى هذا الجهل الذى نسبوه إليه. فكان المجىء بثم بين نتيجة ومقدمات تتعارض معها، تجسيدا لهذا البعد والمفارقة، وهى بما تشيعه من حقيقتها، الدالة على البعد الزمنى تبرز إحالة تلاقيهما، كما يستحيل أن يتلاقى من تفصل بينهم الأزمان المطاولة. وفى هذا الاستبعاد تسفيه وتجهيل لمن ادعى ربوبية المسيح، وإظهاره بمظهر من يدعى الجمع بين المتناقضات.

وقد ذهب أبو حيان إلى أن الغرض من دخول حرف المهلة هنا تعظيم القول، وهو غرض من البلاغة صحيح، غير أن جعله ملزوم دلالة التراخى الحقيقى مما لا نسلم به. يقول أبو حيان: (أتى بلفظ «ثم» التى هى للمهلة تعظيما لهذا القول، وإذا انتفى هذا القول بعد المهلة كان انتفاؤه بدونها أولى وأحرى، أى أن هذا الإيتاء العظيم لا يجامع هذا القول، وإن كان بعد مهلة من هذا الإنعام العظيم)[1].

فلا أحسب أن هذه الأولوية تنسحب على نبى كريم أنعم الله عليه بنعم هى غضّة طرية لايجف نداها، بل تنمو وتتكاثر، ولا تضعف بتقادم العهد، كإيتاء الكتاب والحكم والنبوة، فليس آخرها بأضعف من أولها حتى يقال: إذا لم يقل ذلك بعد مهلة، فإن عدم القول على الفور أولى، فربما يكون ذلك صحيحا لو كان الإنعام بمال أو جاه، أو غيرهما مما شأنه أن يكون طول العهد من مظان نسيانه وإضعاف أثره.

ومن هذا الضرب فى الاستبعاد لإنكار وقوع ما يتوهم وقوعه، قوله تعالى: ﴿ **يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢)**

(١) البحر المحيط ٢/ ٥٠٤

﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلاَّ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ [المعارج: ١١- ١٥]

فقد أبرزت «ثم» البون الشاسع بين الأوهام والواقع، وجسّدت بُعد نجاة المجرم بعد أن أتى من ألوان الكفر ما استوجب معه أشد العذاب، وقد مهد القرآن لهذه النتيجة المؤلمة بألوان من المبالغة، حيث علقها على محال، وهو افتداء النفس بأعز ما يملك من الأهل والأقربين ومن فى الأرض جميعا، وهى محالات ساقها بلو الامتناعية، وبالغ فى الامتناع والبعد بحرف المهلة، على فرض تحقق المحال الأول، وكأنه يقول له: حتى لو تحقق لك هذا المحال، وهو أن تقدم أهل الأرض جميعا فداء لك، وعتقا من النار، فإن ذلك لن ينجيك، ثم دل على ذهوله وفقدان وعيه حين قدم فى الفداء أحب الناس إليه وهم بنوه، وشأن الأسوياء وأصحاب العقول أن تكون أغلى الأشياء عندهم وأنفسها هى آخر ما يضحون به، لكنه هنا عكس الأمر، فإن أول من يضحى به هم أعز الناس إليه، مما يصور شدة هلعه حين رأى العذاب.

المهم أن المستبعَد هنا وهو الإنجاء أمر لم يقع، والاستبعاد لإنكار توهم وقوعه، وتوبيخ المجرم وتسفيهه على تمنى ما لا يمكن فى العقل والعدل حدوثه. لذلك كان الرد عليه بأداة الردع والزجر «كلا إنها لظى».

وقريب من ذلك تمنى الوليد بن المغيرة ما لا يكون فيما قصه الله تعالى عنه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١١- ١٦]. فليس الطمع فى ذاته هو المستبعد، لأن الشأن فى الإنسان أنه نهِم لا يشبع، وأن حبه للدنيا وزينتها لا يقف عند حد، حتى قيل: إن المال كالماء المالح، كلما شربت منه ازددت عطشا، وإنما المستبعد أن يطمع فى زيادة الله له وهو على هذه الحال من الكفر بمن يستزيده، وهو ما اقتضى ردعه وزجره عما طمع فيه «كلا إنه كان لآياتنا عنيدا»، فكان هذا العناد والكفران هو علة الاستبعاد، وإنكار طمعه

فـيمـا لا يكون فدلت «ثم» على اسـتبـعاد وقوع مـا طمع فيـه بعد أن أتى من الاستكبار والعناد ما أغلق دونه أبواب رحمة الله.

الضرب الثانى: الاستبعاد التوبيخى

هو أكثر مواقع الاستبعاد فى القـرآن، وغرضه استنكار وقوع الفعل، والتعجب منه، وتوبيخ فـاعله عليه، ومنه قـوله تعالى: ﴿**وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ**﴾ [البقرة: ٥١] فإن اتخاذ بنى إسرائيل العجل إلها لم يتـراخ زمنه عن ذهاب موسى لميـقات ربه، كمـا يدل عليه قـوله تعالى: ﴿**وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ**﴾ [طه: ٨٣ - ٨٥]. فمـا كاد موسى يتـركهم للقـاء ربه حتى أسرعـوا إلى العجل الذى أخـرجه لهم السامرى فـعبدوه، فالتراخى فى حـرف المهلة ليس حقيقيـا، وإنما هو مجاز عن استبعاد العقل وقوع عبـادة العجل، من قوم فضّلهم الله وكرّمهم، وأفاض عليهم من نعمه ما يستوجب الشكر، وآخـرها تكريمهم بمواعدة موسى، لمناجاته وإلقاء التوراة عليه، وهو تشريف وتكريم لهم ولنبيهم، فالإعراض عن المنعم ولما يجف أثر نعمـته فى أيديهم، مما يستـبعده العقل وينفـر منه أصحاب الفطرة السليـمة، فكيف بمن لم يكتفـوا بالإعراض حتى عبدوا العـجل من دونه؟ أهناك بُعْد أعظم مما بين تكريم الله لهم على هذا النحو الذى استدعى فيه نـبيهم، ليغرقهم بفيض وحـيـه، ويشرفـهم بنزول الـتوراة، وبين أوقـح صورة للعـبـادة، وأخس مَـثَل للمعبودات؟ أو يكون دون «ثم» أداة تصور هذا الـبعد وعمق التناقض بين جلال النعمة ووقاحة الكفران بها؟

وهـل هنـاك قـبح أشـد من قـبـح بنـى إسرائـيل بعـد أن يأخـذ الله ميـثاقـهم ألا يسفكوا دمـاءهم، ويقروا بما عاهدوا الله علـيه، ثم تراهم يقدمـون على قتل أنفسهم ولما يزل صـوت إقرارهم ترجع أصداءه الآفاق: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَـا مِيثَاقَكُـم**

لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ [البقرة: ٨٤- ٨٥].

فهل يمكن أن يترتب فى العقل قتل وإخراج بعد معاهدة المرء ربه على أن مثله لن يكون، وهل يمكن تصوُّر إنسان يجمع بين الإقبال على الله تعالى، ووضع يده فى يده، وإظهار القناعة والرضا، بَلْه الحماس ووفور الهمة، لإنجاز عهده، على ما يظهره شفع الميثاق بالإقرار والشهادة، وبين نقض العهد، وخفر الذمة؟

ذلك ماتشى به «ثم» حين تفرغ أعمالهم من الوعى، وتباعد بينهم وبين صنيع العقلاء، وتكشف التناقض بين أقوالهم وأفعالهم، حتى لكأنهم أشخاص آخرون، غير هؤلاء الذين أخذوا الميثاق، وأقروه، وشهدوا عليه، فجمعت لهم «ثم» بين معنيين: استبعاد حدوث ذلك فى حكم العقل والعادة؟ وإبرازهم فى صورة من تغيرت ذواتهم بتغير صفاتهم، المعنى الأول بطريق التجوز بالبعد الزمنى عن البعد المعنوى، والثانى بحقيقة اقتضاء العطف للمغايرة، والإخبار عن الضمير «أنتم» باسم الإشارة «هؤلاء» وكأنه يقول لهم «أنتم قوم آخرون غير المقرين» للدلالة على أن الوصفين محال عقلا اجتماعهما فى مخاطب واحد، وذلك ما كشف عنه جار الله الزمخشرى فى قوله: («ثم أنتم هؤلاء» استبعاد لما أسند إليهم من القتل، والإجلاء، والعدوان، بعد أخذ الميثاق منهم، وإقرارهم وشهادتهم. والمعنى: ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون، يعنى أنكم قوم آخرون، غير أولئك المقرين، تنزيلا لتغير الصفة منزلة تغير الذات، كما تقول: رجعت بغير الوجه الذى خرجت به)[1].

وانظر كيف يجسد حرف المهلة انتكاسة الفطرة، واختلال الفكر، وغرابة السلوك، حين يقر الإنسان بأن الله هو الخالق والمنعم، ثم يتجه بالعبادة إلى غيره، فى قوله تعالى: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ**

(١) الكشاف ١/ ٢٩٣.

﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣] فلو أنهم ينكرون وجود الله، ويجهلون نعمه، وينسبونها إلى معبوداتهم، لقلنا إنه ضلال العقل، وغيبة الوعى، أما أن يشهدوا لله بما أنعم عليهم، ويقروا بفضله، ثم يسجدوا لمن هو أثر من آثار خلقه، فذلك موطن العجب، وغاية القبح. فأبرزت ثم هذا التناقض بين العلم والسلوك الذى لا يستقيم فى منطق الأشياء.

ومما جاءت فيه للاستبعاد، وأشاعت معانى التعجب والتوبيخ، قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١- ٢].

فما أبعد أن يضع المرء الكفر موضع الشكر، ويقابل الإحسان بالإساءة وما أعجب أن يتمرد المخلوق على خالقه، ويتنكر لمن يده فى فمه تطعم وتسقى! ذلك ما ينشره حرف المهلة ويفيض من بعد الزمن روحا من استبعاد الفعل، والتعجب من وقوعه وتوبيخ فاعله. هذا التعجب والتوبيخ ملزوم الاستبعاد، وهو معنى مجازى فى «ثم»، لأن فعل ما يستبعده العقل، وينكره الطبع والعادة أمر غريب عجيب يستوجب استنكاره وتوبيخ فاعله، وليس التعجب من المعانى الوضعية لهذا الحرف، كما ذهب إليه أبو البقاء الكفوى فى قوله: (وقد يجىء بمعنى التعجب، نحو: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾)[1].

وذهب ابن عطية إلى أن التراخى فى الآية حقيقى، والغرض من إيثار حرفه على الواو الدلالة على قبح عدْل المخلوق بالله، وتوبيخ العادلين، لأن المهلة الزمنية تتيح للعاقل أن يتبين آيات الخلق، ويستدل بها على الخالق، فإذا ما استبدل الكفر بالحمد بعد التروى والنظر، كان ذلك أقبح مما لو تعجل الكفران، لأنه جاء بعد تمام المعرفة، وهو وجه من البلاغة صحيح، لو أنهم لم يسارعوا إلى الكفر،

(١) الكليات ٢/١٢٦.

ويبادروا إلى الافتـراء، يقول ابن عطية: («ثم» دالة على قبح فـعل الذين كفروا، لأن المعنى أن خلقـه السموات والأرض، وغـيرهمـا قد تقرر وآياته قـد سطعت، وإنعامه بذلك قد تبـين، ثم بعد هذا كله عدلوا بربهم، فهذا كـما تقول: يا فلان أعطيتك وأحسنت إليك، ثم تشتـمنى، أى بعد مهلة من وقوع هذا كله، ولو وقع العطف فى هذا ونحوه بالواو لم يلزم التوبيخ كلزومه بثم)[1].

لقد أحسن ابن عطية بيان سر إيثـار حرف المهلة على الواو، لأن التوبيخ معها ألزم وأعظم، لكن ذلك لا يلزم أن يـكون التراخى حـقـيقـيّا، لأن المعـروف أن المشركين بادروا بالكفر، فور دعوتهم إلى عبادة ربهم، فكان لابد من تأويل البعد فى معنى الحرف بالبعد المعنوى، كما أن البعد فى قول القائل: «أحسنت إليك ثم تشتمنى» هو بعد مجازى أيضًا، لأن التوبيخ والتـعجب من الإساءة يتضاءل فيما لو وقعت هذه الإساءة بعد زمن طويل، إذ الشأن معه النسيان بخلاف ما إذا أساء إلى المحسن ولما يجفَّ ندى نعمته فى يده، فإن القبح حينئذ أشد، فكان لابد من حمل ثُم على المجاز بالاستبعاد.

وقد جعلها الإمام ابن عـاشور للتراخى الرتبى، ذاهبًا إلى أن المعطوف أعجب وأغرب مما عطف عليه، قال: (و«ثم» للتـراخى الرتبى، الدال على أن ما بعدها يتضـمن معنى من نوع ما قبـله، وهو أهم فى بابه، وذلك شأن «ثم» إذا وردت عاطفـة جملة على أخـرى، فإن عدول المشـركين عن عبادة الله مع عـلمهم بأنه خالق الأشياء أمر غريب فيهم أعـجب من علمهم بذلك... والخبر مستعمل فى التعجيب على وجه الكناية، بقرينة موقع «ثم» ودلالة المضارع على التجدد)[2].

كون «ثم» هى التى أومـأت إلى التعجـيب من شـأن العادلين لا جـدال فيه، أما أنها للتراخى الرتبى فذلك ما لا نسلم به، لأن التراخى الرتبى لا يتناقض فيه المعطوف مع المعطوف عليـه، بل يكون أرفع منه درجة، وها هنا يهـيئ المعطوف عليـه لعكس الفعل المـعطوف، فلا تلاقى بينهـمـا حتى يكون هناك تفـاوت فى

(١) المحرر الوجيز ٦/ ٣

(٢) التحرير والتنوير ٧/ ١٢٨.

الدرجة، والعجيب بحق أن يقول الشيخ إن التراخى الرتبى هو الدال على أن ما بعدها يتضمن معنى من نوع ما قبله، فهل الكفر بالله تعالى والعدل به من نوع المعطوف عليه وهو ثبوت الحمد لخالق السموات والأرض؟!

ثم انظر كيف تصل «ثم» بالتعجيب حدا يستسقط عقول المتعجَّب من فعلهم فى قوله تعالى: ﴿**وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ**﴾ [المائدة: ٤٣]

فالمحتكمون إلى رسول الله عليه السلام لا يؤمنون به، وهو واحد من العجائب، ولدى المحتكمين حكم فى كتابهم الذى يدينون به، والعدول عنه إلى ما لا يؤمنون به عجب آخر، والتولى عمن احتكموا إليه بعد الحكم غاية العجب، كل ذلك بسطته «ثم» فى هذا البعد الحسى المتجوز به عن استبعاد العقل ترتب النتيجة على مقدمات تتناقص معها، مما يعكس اختلال الفكر والسلوك لدى القوم.

ومن ذلك قوله تعالى توبيخا للمشركين، وتعجيبا من إدبارهم، وتبهيتهم رسول الله ﷺ بعد ما رأوا من المعجزات الموجبة للإيمان: ﴿**أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ**﴾ [الدخان: ١٣- ١٤] ففى المعطوف عليه ما يستوجب الإقبال على الرسول والإيمان به. بعد أن أراهم من الآيات ما يقطع برسالته، وفى المعطوف إغراق فى الكفر، وإبعاد فى الضلال، حيث لم يكتفوا بالإعراض حتى بهتوه، ووصفوه بالافتراء والجنون. فباعدت «ثم» بين الأمرين، على ما يوجبه العقل والعدل، وجسّدت بهذا البعد الحسى غرابة ما ادعوه والتعجب من صنيعهم، وتوبيحهم على فعل ما كان ينبغى أن يكون.

وفى قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ**﴾ [المجادلة: ٨] يتصاعد حرف المهلة بالتعجيب من صنيع اليهود والمنافقين

بعد التعجب بالاستفهام، ليدل على غاية القبح فيما ارتكبوه من أفعال نهاهم الله تعالى عنها، وحذّرهم منها، فتمادوا ولجوا فيما نهوا عنه، من التناجى بالإثم والعدوان. وقد حفلت الآية بوسائل الإنكار والتوبيخ، بدءا من الاستفهام بصيغته الدالة على التعجب ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، واختيار فعل الرؤية، لفضحهم فيما ظنوا أنه بمنأى عن اكتشافه، فهو لم يسمع ما قالوه فحسب، بل رأى فى أعينهم، ولمحات وجوههم آثار تغامزهم، والمجىء بإلى الموحية بالبعد النفسى بين المخاطب والمتناجين تحقيرا لهم، وازدراء لفعلهم، وإيثار حرف المهلة لإبراز البعد والتناقص بين موجبات الانتهاء، ودواعى الإقلاع عن التناجى، وبين استكبارهم وإصرارهم على فعل ما نهوا عنه.

- **بين دلالة الحرف ومفهوم السياق**

فجّر أبو حيان قضية حول الدلالة على الاستبعاد، أهى مفادة من حرف المهلة، أم مفهومة من سياق الكلام؟ فقال فى تفسير قوله تعالى ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾ [البقرة: ٧٤].

(قال الزمخشرى: معنى ﴿**ثُمَّ قَسَتْ**﴾ استبعاد القسوة بعد ذكر ما يوجب لين القلوب ورقتها، ونحو: ﴿**ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ**﴾. انتهى. وهو يذكر عنه أن العطف بثم يقتضى الاستبعاد، ولذلك قيل عنه فى قوله ﴿**ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾. وهذا الاستبعاد لا يستفاد من العطف بثم، وإنما يستفاد من مجىء هذه الجمل، ووقوعها بعد ما تقدم مما لا يقتضى وقوعها، ولأن صدور هذا الخارق العظيم، الخارج عن مقدار البشر فيه من الاعتبارات والعظات ما يقتضى لين القلوب، والإنابة إلى الله تعالى، والتسليم لأقضيته، فصدر منهم غير ذلك من غلظ القلوب، وعدم انتفاعها بما شاهدت، والتعنت والتكذيب)[1].

وقال أيضا عند تفسيره لقوله تعالى ﴿**ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأنعام: ١]، بعد أن ذكر رأى ابن عطية والزمخشرى فى معنى «ثم»: (وهذا الذى ذهب إليه

(١) البحر المحيط ١/ ٢٦٢.

ابن عطية من أن «ثم» للتوبيخ، والزمخشرى من أن «ثم» للاستبعاد ليس بصحيح، لأن «ثم» لم توضع لذلك، وإنما التوبيخ والاستبعاد مفهوم من سياق الكلام، لا من مدلول «ثم» ولا أعلم أحداً من النحويين ذكر ذلك، بل «ثم» هذه للمهلة فى الزمان، وهى عاطفة جملة اسمية على جملة اسمية)[1].

وقبل أن نناقش أبا حيان فيما رآه، يجب أن ننوه بأن ابن عطية حين قال بدلالة «ثم» على التوبيخ لم يخرجها عن حقيقة معناها. بل إن دلالتها على المهلة عنده هى التى أفادت التوبيخ، لأن من يعدل بالله تعالى غيره بعد زمن من تأمل خلقه وظهور الأدلة على وحدانيته، أحق بالتوبيخ والتسفيه ممن لم يتح له مثل هذا الزمن، من النظر والاستبصار. وقد أثبتنا نص كلام ابن عطية آنفا[2].

وقول أبى حيان: «إن ثم لم توضع لذلك» كلام صحيح، وإن لم يؤد إلى ما قصد إليه. ذلك أننا لا نقول، ولا قال الزمخشرى وغيره ممن تابعوه وهم كثير: إن دلالة ثم على الاستبعاد دلالة وضعية، وإنما هى ضرب من التجوز بالبعد الزمانى عن البعد المعنوى.

أما كون الاستبعاد مفهوما من مضمون الكلام، لا من حرف المهلة، فذلك أمر يحتاج إلى مناقشة، وليس بالأمر السهل على ما هوَّنه الشهاب فى قوله: (إن منهم من جعل الاستبعاد مأخوذا من الكلام لا مدلول ثم، والأمر فيه سهل)[3].

وسبب أهمية ما أثاره أبو حيان -فى نظرى- أن إسقاط دلالة الحرف على معناه المجازى، ونسبته إلى إشارات السياق، لا يختص بحرف المهلة وحده -إذا ما قلنا به- بل إنه يسرى إلى غيره من الحروف، حين تخرج عن دلالاتها الوضعية، كحروف الاستفهام وحروف الجر، بل إن ذلك ينسحب على أفعال الأمر والنهى

(١) البحر المحيط ٤/ ٦٩.
(٢) انظر ص ٢٠٠ من هذا الكتاب.
(٣) حاشية الشهاب ٢/ ١٨٦.

حين تفارق حقائقها. فإن قوله تعالى: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التوبة: ١٠٥] يدل فيه الأمر ﴿**اعْمَلُوا**﴾ على حقيقيته من الطلب. وهذا الفعل نفسه وقع فى قوله تعالى: ﴿**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [فصلت: ٤٠] دالا على التهديد والوعيد. وفى قوله عليه السلام: «**لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم**» دل الفعل عينه على التشريف والتكريم، وبذلك صرح ابن حجر العسقلانى فيما نقله عن القرطبى فقال: (وقد ظهر لى أن هذا الخطاب خطاب إكرام وتشريف، تضمن أن هؤلاء حصلت لهم حالة غفرت بها ذنوبهم السالفة)[1].

فالفعل «اعملوا» تكرر فى الأمثلة الثلاثة، فدل على الطلب حقيقة فى المثال الأول، وعلى التهديد مجازا فى الثانى، وعلى كمال الرضا والتشريف تجوزا أيضا فى الثالث، والناطق بذلك هو السياق والقرائن، فهل نقول إن هذه الدلالات ليست للأفعال وإنما هى مدلول الكلام الذى وقعت فيه؟

ثم إن النحاة الذين جعلوا الهمزة للاستفهام، وهو معناها الحقيقى، أثبتوا لها معانى مجازية، وهذه المعانى من نشر السياق كذلك، لأن الهمزة لم تتغير من حيث هى، وإنما الذى تغيّر هو سياقها، ومع ذلك نقول: إنها دلت على التوبيخ أو التقرير، أو الإنكار، وغير ذلك من معانيها العديدة، فهل يقال كذلك إن هذه المعانى وليدة مضمون الكلام، فإليه تنسب، والهمزة دالة على طلب الفهم على ما هى موضوعة له؟

إن هذا لم يقل به أحد من النحاة، فهذا الخليل بن أحمد فى كتابه الجُمل فى النحو، يقول فى قوله تعالى: ﴿**أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ**﴾ [النمل: ٦٧] (إن هذه الألف ألف التعجب، لأن الكفار لا تستفهم)[1]، ويقول فى قوله تعالى: ﴿**يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ [المائدة: ١١٦] (فهذه ألف التقرير، وقد علم الله أن المسيح عليه السلام لم يقل للناس ما قالوا فيه)[2] فما الذى تغير فى هذه الألف، وهى الموضوعة للاستفهام

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٨/ ٥١٥.
(٢) الجمل فى النحو ٢٤٦.

لتكون بمعنى التعجب والتقرير؟ أليس السياق هو الذى نشر عليها هذه المعانى؟ فهل يمكن القول بأن الهمزة فيه للاستفهام، والتعجب أو التقرير دل عليه مفهوم الكلام؟

الفصل فى هذه القضية هو أن يقال: هل يمكن للتعجب أو التقرير المصاحبين للهمزة، أو الاستبعاد المصاحب لحرف المهلة، أن يؤدى بغير الهمزة وثم؟

فإن أمكن ذلك -وهو ليس بممكن- كان مدلول الكلام لا مدلول الحرف، وإن لم يمكن كان قطعا من دلالات الحرف.

إذا كان ابن عطية قد قرر أن التوبيخ فى قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ لازم لحرف المهلة، وأنه لو وقعت الواو موقعه لما دلت عليه دلالته، فإننا نقول فى قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ**﴾ [البقرة: ٧٢- ٧٤] ماذا لو قيل: فقست قلوبكم. أو وقست قلوبكم أيكون ذلك دالا على الاستبعاد؟ إذا لم يكن -وهو بالقطع لا يكون- فإنه يتعين أن يكون الاستبعاد مدلول حرف المهلة، ويكون ذلك سر إيثاره على أخويه فى موضعه.

ثم ها هنا ما هو أضعف لحجة أبى حيان، فقد نقل فى قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا**﴾ [السجدة: ٢٢] من سورة السجدة قول الزمخشرى: «ثم للاستبعاد، والمعنى أن الإعراض عن آيات الله فى وضوحها، وإنارتها، وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد فى العقل والعادة» ولم يعلق عليه[1] مما يدل على أنه ارتضاه معنى لحرف المهلة. وفيما أشبهه من النظم فى سورة الكهف، وهو قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا**﴾ [الكهف: ٥٧] وقد حلت فيه الفاء محل «ثم» لم يقل أبو حيان ولا غيره. إن مضمون الجملة دل على الاستبعاد مع اتحاد النظم فى الآيتين والمغايرة فى العاطف فحسب، فلو لم يكن الاستبعاد ملزوم

(١) ينظر البحر المحيط ٧/ ٢٠٤.

حرف المهلة، لقال أبو حيان بالاستبعاد كما قال فى آية السجدة، والكلام هو نفس الكلام.

نصل بذلك إلى القول بأن الاستبعاد معنى مجازى من معانى «ثم»، وإذا كان النحاة قبل أبى حيان لم يذكروه من معانيها، فلأنهم معنيون بإثبات المعانى الوضعية، أما المعانى المجازية فهى صناعة أهل البيان.

ولأهل البيان كلام دقيق فى دلالة الكلمة على معان تتولد من دلالاتها الأصيلة بمعونة القرائن. قال السكاكى فى أدوات الاستفهام، بعد أن أوضح حقائقها: (واعلم أن هذه الكلمات كثيرا ما يتولد منها أمثال ما سبق من المعانى، بمعونة قرائن الأحوال، فيقال: ما هذا؟ ومن هذا؟ لمجرد الاستخفاف والتحقير، ومالى؟ للتعجب)[1] ثم كشف عن القرائن الدالة على التعجب فى قوله تعالى: ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٨] فقال: (ووجه تحقيق ذلك هو أن الكفار فى حين صدور الكفر منهم، لابد من أن يكونوا على إحدى الحالين: إما عالمين بالله، وإما جاهلين به، فلا ثالثة. فإذا قيل لهم: كيف تكفرون بالله؟ وقد علمت أن «كيف» للسؤال عن الحال، وللكفر مزيد اختصاص بالعلم بالصانع، وبالجهل به انساق إلى ذلك، فأفاد: أفى حال العلم بالله تكفرون، أم فى حال الجهل به؟ ثم إذا قيد ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ**﴾ والحال حال علم بهذه القصة، وهى أن كنتم أمواتا فصرتم أحياء، وسيكون كذا وكذا صيِّر الكفر أبعد شىء عن العاقل، فصار وجوده مظنة التعجب)[2].

فالتعجب هنا وليد استبعاد وقوع الكفر ممن يعلم أن الله أحياه بعد موت، وسيميته ويحييه، وهى قرائن خروج الاستفهام عن حقيقته، وحين ينسب البلاغيون والنحاة التعجب إلى كلمة الاستفهام، فإنما ذلك لأنه لا يؤدى بغيرها، ودور القرائن هنا وفى كل تجوز الدلالة على خروج الكلمة عن حقيقتها، ولا ترقى إلى أن تكون هى مصدر المعنى المتجوز به.

(١) مفتاح العلوم ١٧٥.

(٢) مفتاح العلوم ١٧٥

ثانيًا: التجوز فى الترتيب

مما امتازت به «ثم» عن الواو، دلالتهـا على الترتيب، بحيث يقع المعطوف بها بعد المعطوف عليه. تلك حقيقة هذا الحرف كما أثبتها النحاة.

لكن كثيرًا من النصـوص فى فصـيـح لسـان العـرب وردت فيـها «ثم» عاطفـة ما رتْبتُه التقدم فى الوجود، فاختلفت فى تفسيرها أقوال النحاة، وتصارعت حولها مذاهبهم، يقول المالقى: (واختلف الكوفـيون والبصريون من النحويين: هل تعطى رتبة أو لا تعطى؟ فذهب الكوفيون إلى عدم الترتيب. واحتجوا بقول الشاعر:

إن مـن سـاد ثم سـاد أبـوه ثم سـاد قـبـل ذلك جـدّه

والصحيح مذهب البصريين، بدليل استقراء كلام العرب، أنها لا تكون إلا مرتبة، وما احتج به الكوفيـون لا حُجَّة فيه بوجهين: أحدهما: أنه قـد يحتمل أن يسود الوالدان بسيـادة الولد، والجد بسـيادة الوالد، وهذا موجـود حسـا، فلا يلزم أن تكون سـيادة أحـدهم قبل الولد، والثـانى: أن تكون سيـادة الجد قـبل الوالد، والـوالد قبل الولد ولا يعلم المتكلم بالإخبار السيادةَ، فـيخبر على نحو ما علم، لا على الأصل، وما احتمل لا حجة فيه)[1].

حاول المالقى إيجاد وجه للترتيب الوجودى بجعل منشأه السيادة من الولد، ثم سرت إلى الوالد، ومنه إلى الجد، كما قال ابن الرومى:

فكـم أب عـلا بابـن ذرا شـرف كـمـا علت بـرسـول الله عـدنان

لكن يكدر على ذلك أمران: أولهـما أن ذلك يخلُّ بكمال المدح، حـيث يعرّى أصله من الشرف والسـيادة بجعـل الممدوح بداية المجد والسـؤود. وثانيهمـا: قوله «قبل ذلك» فإنها تدل على أن الجدّ قـد سبق إلى هذه السيادة. وبه رد المرادى على ابن عصـفور حـين حمل البيت عـلى سبق الابن بالمجد، فـقال: (ومـا ذكره ابن

(١) رصف المبانى ٢٥٠.

عصفور فى تأويل البيت لا يساعد عليه قوله «قبل ذلك»)[1] أما الوجه الثانى الذى ذكره المالقى فهو الذى اصطلح على تسميته بالترتيب فى الذكر، أو ترتيب الإخبار.

وما يمس البلاغة فى قضية الترتب بثم، هو العدول عن حقيقة الترتيب إلى مجازه، وأسرار هذا التجوز.

وإذا كان المالقى يرى أن الداعى إلى المخالفة يتعلق بحال المتكلم الذى رتَّب كلامه فى البيت، وفقًا لترتيب المعانى فى ذهنه، حيث سبقت فى علمه سيادة الابن سيادة أبيه، وسيادة أبيه سيادة جده، فدل بهذا الترتيب على سبق العلم بالخبر، لا على سبق الخبر فى ذاته، فإن السهيلى ذهب إلى أن عكس الترتيب غرضه الاهتمام بالمقدَّم، فكأن المتكلم رتب المتعاطفات على حسب أهميتها، لا على وفق ترتبها فى الوجود. مثلما قدم الله الإهلاك على مجىء الناس فى العطف بالفاء[2]، وهى مثل «ثم» فى دلالتها على الترتيب فى قوله تعالى: ﴿ **وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا** ﴾ [الأعراف: ٤].

وجعلها الرضى للتدرج والارتقاء، والبدء بما هو أخص، فقال: (وقد يجىء «ثم» لمجرد الترتيب فى الذكر، والتدرج فى درج الارتقاء، وذكر ما هو الأولى، ثم الأولى، من دون اعتبار التراخى، والبعد من تلك الدرج، ولا أن الثانى بعد الأول فى الزمان، بل ربما يكون قبله، كما فى قوله:

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم ساد قبل ذلك جده

فالمقصود ترتيب درجات معالى الممدوح، فابتدأ بسيادة نفسه، ثم بسيادة أبيه، ثم بسيادة جده، لأن سيادة نفسه به أخص، ثم سيادة الأب، ثم سيادة الجد، وإن كانت سيادة الأب مقدمة فى الزمان على سيادة نفسه)[3].

• العدول عن ترتيب المخبَر به إلى ترتيب الإخبار

الترتيب فى الإخبار يعنى أن مرتبة الإخبار الثانى بعد مرتبة الأول[4] والزمخشرى يجعله تدرجًا وارتقاء إلى ما هو أشد وأعظم، فهو ترتيب رتبى،

(١) الجنى الدانى ٤٢٩.
(٢) ينظر نتائج الفكر ٢٥٠.
(٣) شرح الكافية ٢/ ٢٦٧
(٤) ينظر تقرير الشربينى على فيض الفتاح ٢/ ٣٠٦.

يكون المعطوف فيه أعلى درجة من المعطوف، وتستعار فيه «ثم» من الدلالة على الترتيب فى الوجود إلى الترتيب فى الدرجة والمنزلة، وحينئذ لابد أن يكون الإخبار الثانى أعظم من الإخبار الأول.

من هذا ما جاء تبشيرًا للمؤمنين بأن اليهود لن يظهروا عليهم فى حرب، وأن الخذلان حليفهم أبدًا، فى قوله تعالى: ﴿**لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ**﴾ [آل عمران: ١١١] فقد تضمن العطف فى قوله ﴿**ثُمَّ لا يُنصَرُونَ**﴾ مبالغتين: أولاهما دل عليها رفع الفعل «ينصرون» بدلاً من جزمه عطفًا على ما قبله، حتى لا يكون عدم نصرهم مشروطًا بمقاتلتهم. والثانية عطفه بثم دون الواو -وهو موقعها- لأن عدم نصرهم ليس متأخرًا عما قبله. وفى ذلك إشعار بأن الإخبار بهذا الخذلان الدائم أعظم فى البشارة مما عطف عليه، فكان تأخيره ترقيًا فى الإخبار، وتعظيمًا للبشارة الثانية، وهذا ما أفاده الزمخشرى (فإن قلت: هلا جزم المعطوف فى قوله ﴿**ثُمَّ لا يُنصَرُونَ**﴾؟ قلت: عدل عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت: فأى فرق بين رفعه وجزمه؟ قلت: لو جزم لكان نفى النصر مقيدًا بمقاتلتهم، كتولية الأدبار، وحين رفع كان النصر وعدًا مطلقًا، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التى أخبركم عنها، وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون، منتف عنهم النصر والقوة، لا ينهضون بعدها بجناح، ولا يستقيم لهم أمر، وكان كما أخبر عن حال قريظة، والنضير، وبنى قينقاع، ويهود خيبر. فإن قلت: فما الذى عطف عليه هذا الخبر؟ قلت: جملة الشرط والجزاء، كأنه قيل: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لا ينصرون. فإن قلت: فما معنى التراخى فى ثم؟ قلت: التراخى فى المرتبة؛ لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليهم الأدبار)[1].

ويوضح ابن المنير هذا التراخى ونوع التجوز فيه تعليقًا على ما جاء فى الكشاف، فيقول: (وهذا من الترقى فى الوعد عما هو أدنى إلى ما هو أعلى،

(١) الكشاف ١/ ٤٥٥.

لأنهم وعدوا بتولية عدوهم الأدبار عند المقاتلة، ثم ترقى الوعد إلى ما هو أتم فى النجاح معه من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقًا، ويزيد هذا الترقى بدخول «ثم» دون الواو، فإنها تستعار ها هنا للتراخى فى الرتبة، لا فى الوجود، كأنه قال: ثم ها هنا ما هو أعلى فى الامتنان، وأسمح فى رتب الإحسان، وهو أن هؤلاء القوم لا ينصرون البتّة)[1].

الترتيب فى الإخبار إذًا ضرب من التجوز فى معنى الحرف، يستعار فيه التراخى فى الزمن للتراخى فى المراتب. وهو خاص بحرف المهلة، وبه يمتاز على الواو، ولذلك أوثر عليها هنا، وفيما أشبهه من النظم الكريم.

على أن القول بالترتيب فى الذكر أو ترتيب الإخبار، ليس مما اخترعه الزمخشرى، بل سبقه إليه النحاة والمفسرون، وعللوا به كل موطن تخالف فيه «ثم» حقيقتها من الدلالة على الترتيب الوجودى، سواء أكان المعطوف سابقًا للمعطوف عليه، أم واقعًا معه فى آن واحد.

ففى قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ**﴾ [البقرة: ٢٩] تقدم خلق الأرض على خلق السموات، مع أن خلق السموات أسبق، على ما جاء فى قوله تعالى: ﴿**أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**﴾ [النازعات: ٢٧- ٣٠] فقوله ﴿**بَعْدَ ذَلِكَ**﴾ صريح فى تأخر خلق الأرض عن خلق السموات. فقال ابن عطية: (وقوله تعالى: ﴿**ثم استوى**﴾ ثم هنا هى لترتيب الأخبار، لا لترتيب الأمر فى نفسه)[2].

لكن الزمخشرى أضفى عليه جدة وطرافة، حين جعله ضربًا من التجوز بالترتيب الزمانى عن الترتيب فى المنزلة، وكشف عن أسرار هذا التجوز فى مواقعه من النظم الحكيم، وأغراض العدول عن ترتيب المعانى المخبر بها إلى ترتيب الإخبار بها. وإذا أردت أن تعرف الفرق فى المعالجة بين الزمخشرى ومن سبقوه، فقارن بين ما قاله ابن عطية فى الآية السابقة، وبين قول الزمخشرى:

(١) الإنصاف ١/ ٤٥٥.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ١٦٠

(«ثم» ههنا لما بين الخلقين من التفاوت، وفَضل خلق السموات على خلق الأرض، لا للتراخى فى الوقت)[1].

فتقديم السموات على الأصل من الترتيب الوجودى يضيع الغرض من الدلالة على الارتقاء فى الذكر، من خلق عظيم إلى خلق هو أعظم منه، وهو السر الذى من أجله استعيرت ثم للتراخى الرتبى.

والغريب أن الرازى -وهو من رجالات البيان- وممن تابع الزمخشرى فى القول بدلالة «ثم» على التراخى فى المرتبة، كما صرح به فى أكثر من موطن فى تفسيره[2] نجده يقول فى عطف الاستواء بحرف المهلة («ثم» ليس للترتيب ههنا، وإنما هو على جهة تعديد النعم، مثاله قول الرجل لغيره: أليس قد أعطيتك النعم العظيمة، ثم رفعت قدرك، ثم دفعت الخصوم عنك، ولعل بعض ما أخره فى الذكر قد تقدم، فكذا ههنا)[3] فإن مثل هذا القول يجرد «ثم» من دلالتها على الترتيب، ويجعلها والواو سواء، ويعرِّى إيثارها فى مثل هذا الموضع على الواو من الفائدة، ولو أن الرازى يقول بمثل ذلك فى كل موضع وقعت فيه لكان أعذر له، أما أن يجعلها للترتيب حينًا، وينزع عنها هذه الدلالة حينًا آخر، فلا عذر له فيه. وقديمًا نعى الإمام عبد القاهر على من يقول بإفادة التقديم حينًا، وعدم إفادته حينًا آخر، فقال: (واعلم أن من الخطأ أن يقسم الأمر فى تقديم الشىء وتأخيره قسمين، فيجعل مفيداً فى بعض الكلام، وغير مفيد فى بعض، وأن يعلل تارة بالعناية، وبأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب، حتى تطرد لهذا قوافيه، ولذلك سجعه، ذاك لأن من البعيد أن يكون فى جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى)[4] وهذا عين ما وقع فيه الرازى حين يوجب تقدم المعطوف عليه بثم فى موضع، ويجيز تأخيره فى موضع آخر.

وقد سبق ابن عطية إلى مثل هذا القول فى تعليل عطف الإفاضة الثانية بثم فى قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ**

(١) الكشاف ١/ ٢٧١.
(٢) ينظر تفسير الرازى ٦/ ١٩٩.
(٣) السابق ٢/ ١٧٠.
(٤) دلائل الإعجاز ١١٠.

﴿كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٨- ١٩٩] قال ابن عطية: (المخاطب بهذه الآية قريش ومن ولدت من الحمس، وذلك أنهم كانوا يقولون: نحن قطين الله، فينبغى أن نعظم الحرم، ولا نعظم شيئًا من الحل، فسنّوا شق الثياب فى الطواف إلى غير ذلك، وكانوا مع معرفتهم وإقرارهم أن عرفة هو موقف إبراهيم لا يخرجون من الحرم، ويقفون بجَمْع، ويفيضون منه، ويقف الناس بعرفة، فقيل لهم أن يفيضوا مع الجملة، و«ثم» ليست فى هذه الآية للترتيب، إنما هى لعطف جملة كلام على جملة منها منقطعة)[1].

اندفع ابن عطية إلى سلب الترتيب من حرف العطف، لأن المعطوف عليه، وهو قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ ليس مما يسبق المعطوف، بل هما إفاضة واحدة، خوطب بالأولى عامة الناس، وبالثانية، قريش، فالترتيب الزمنى لا محل له، والقول بانقطاع الكلام قصد به أن «ثم» للاستئناف، وليست عاطفة لفعل على فعل، وإنما هى عاطفة لجملة كلام على جملة كلام آخر. ومثل هذا القول لا يَقنع به أهل البيان، لأنه لا يكشف عن سر العطف بحرف المهلة مع إمكان تأدية هذا العطف بالواو.

وفى جواب الزمخشرى يظهر سر المغايرة بين الإفاضتين، وسر إيثار حرف التراخى، لأن إيجاب المساواة بين قريش وعامة الناس، فى المكان الذى تبدأ به الإفاضة، أومأ إلى أن اختصاص قريش نفسها بالإفاضة من المزدلفة، دون عامة الناس الذين يفيضون من عرفات، ضرب من المخالفة فى النسك، فألمحت «ثم» إلى ما بين إفاضة صحيحة وأخرى باطلة. يقول الزمخشرى: (فإن قلت: كيف موقع «ثم»؟ قلت: نحو موقعها فى قولك: أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم، تأتى بثم لتفاوت ما بين الإحسان إلى الكريم، والإحسان إلى غيره وبعد ما بينهما، فكذلك حين أمرهم بالذكر عند الإفاضة

(١) المحرر الوجيز ٢/ ١٥٩.

من عرفات. قال «ثم أفيضوا» لتفاوت ما بين الإفاضتين، وأن إحداهما صواب، والثانية خطأ)[1].

أصاب الزمخشرى هدفين بسهم واحد، فدل على نكتة العطف فيما يبدو كما لو كان من عطف الشيء على نفسه، وعلى إيثار «ثم» على الواو فهو من عطف الخاص على العام أو من عطف المقيد على المطلق، والغرض من حرف التراخى الدلالة على التفاوت بين المتعاطفين، قياسًا على قولك: أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم، وقد فصل ابن المنير ما أجمله الزمخشرى فقال: (وقد اشتملت الآية على نكتتين: إحداهما عطف الإفاضتين، إحداهما على الأخرى ومرجعهما واحد، وهو الإفاضة المأمور بها، فربما يتوهم متوهم أنه من باب عطف الشيء على نفسه، فيزال هذا الوهم بأن بينهما من التغاير ما بين العام والخاص، والمخبر عنه أولاً الإفاضة من حيث هى غير مقيدة، والمأمور به ثانيًا: الإفاضة مخصوصة بمساواة الناس، والثانية بعد وضوح استقامة العطف كونه وقع بحرف المهلة، وذلك يستدعى التراخى مضافًا إلى التغاير، وليس بين الإفاضة المطلقة والمقيدة تراخ، فالجواب غير ذلك أن التراخى كما يكون باعتبار الزمان قد يكون باعتبار علو المرتبة، وبُعدها فى العلو بالنسبة إلى غيرها، وهو الذى أجاب به بعد مزيد تنشيط وإيضاح)[2].

غير أن قول الزمخشرى: «أن إحداهما صواب والثانية خطأ» يجعل قياس الآية على قولك: «أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم» قياسًا غير صحيح، لأن الأول يتناقض فيه المعطوف مع المعطوف عليه تناقض الصواب والخطأ، والثانى فيه تفاوت فى درجة الإحسان. ولعل الزمخشرى قصد التشابه فى التفاوت والبعد، وفى كونهما من عطف الخاص على العام، وفى التجوز بالترتيب الزمانى عن الترتيب الرتبى، وهى وجوه من المشابهة تكفى لصحة التشبيه، وليس المراد مطابقة المثال للآية. ولعلنى بذلك أدفع اعتراض أبى حيان

(١) الكشاف ١/ ٣٤٩.
(٢) الإنصاف ١/ ٣٤٩.

فى قولـه: (وليست الآية كالمـثال الذى مثَّلـه. وحاصل ما ذكـر أن «ثم» تسلب الترتيب، وأنها لمعنى غيره سماه بالتفاوت والبعد لما بعدها مما قبلها)[1].

والحق أن الزمخشرى لم يسلب «ثم» معناها من الترتيب، وإنما استعار دلالتها على الترتيب الوجودى للترتيب المعنوى.

ومما ثار حول الترتيب فيه جدل طويل، قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ**﴾ [الأنعام: ١٥٣- ١٥٥].

فإن إيتاء موسى الكتاب سـابق على ما وصى الله تعالى به فى القرآن، فذهب البـعض إلى أنه عطف على قـوله فى نهـاية قصـة إبراهيم ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**﴾ [الأنعام: ٨٤] فكأنه من عطف القـصة على القصـة، ولكن الفاصل الطويل الذى يبلغ سـبعـين آية يضعف هذا القـول. وقال آخـرون: إن ثم بمعنى الواو لا تفيد ترتيبًا، وقد استسـقطنا مثل هذا القول من قبل، وقيل إنها للترتيب الإخبارى[2]. وقال الزجاج: (فأما دخول «ثم» فى قوله: ﴿**ثُمَّ آتَيْنَا**﴾ وقد علمنا أن ثم لا يكون الذى بعدها أبدا معناه التقديم، وقد علمنا أن القرآن أنزل من بعد موسى، وبـعد التوراة. فـقال: «ثم آتينا مـوسى الكتاب» فـإنما دخلت «ثم» فى العطف على التـلاوة، والمعنى: **(قل تعـالوا أتل ما حـرم ربكم عليكم، أتل عليكم ألا تقتلوا أولادكم، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله، ثم أتلوا ما آتاه الله موسى)**[3].

وهـو كمـا ترى لا يعـدو أن يكون بحـثًا عن وجه لصحـة معنى الترتيب، ولا يظهر وجه إيثار «ثم» فيما هو موضع الواو.

وقد جعل صاحب التحرير والتنوير ذكر إيتاء موسى الكتاب تمهيدًا لذكر إنزال القرآن، فيكون مجموعهـما أعظم درجة من المعطوف، وثم للترتيب الرتبى، قال

(١) البحر المحيط ٢/ ٦٩.
(٢) ينظر روح المعانى ٨/ ٥٩.
(٣) معانى القرآن وإعرابه ٢/ ٣٣٦.

ابن عاشور بعد أن ذكر أقوال السابقين: (والوجه عندى أن «ثم» ما فارقت المعروف من إفادة التراخى الرتبى، وأن تراخى رتبة إيتاء موسى عليه السلام الكتاب عن تلاوة ما حرم الله فى القرآن، وما أمر به من ملازمة صراط الإسلام، إنما يظهر بعد النظر إلى المقصود من نظم الكلام، فإن المقصود من ذكر إيتاء موسى عليه السلام الكتاب ليس لذاته، بل هو التمهيد لقوله: ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ**﴾ ليرتب عليه قوله ﴿**أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا**﴾ إلى قوله ﴿**وَهُدًى وَرَحْمَةً**﴾ فمعنى الكلام: وفوق ذلك فهذا كتاب أنزلناه مبارك، جمع فيه ما أوتيه موسى عليه السلام، وهو أعظم ما أوتيه الأنبياء من قبله، وما فى القرآن الذى هو مصدق لما بين يديه ومهيمن عليه)[1].

وهذا الوجه مستمد من كلام الزمخشرى، وإن بدا من قوله «والوجه عندى» أنه مما افترعه، وهو لا يختلف فى مضمونه عما جاء فى الكشاف وإن اختلفا شكلاً فى المعطوف عليه، فهو عند الزمخشرى «ذلكم وصاكم به» وعند ابن عاشور: «قل تعالوا» ومضمون ما دُعوا إليه يستجمعه اسم الإشارة «ذلكم» وإليك نص الكشاف (فإن قلت: «كيف صح عطفه عليه بثم، والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل؟ قلت: هذه التوصية قديمة، لم تزل توصاها كل أمة على لسان نبيهم، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما: «محكمات لم ينسخهن شىء من جميع الكتب» فكأنه قيل: (ذلكم وصاكم به يا بنى آدم قديمًا وحديثًا، ثم أعظم من ذلك أنا أتينا موسى الكتاب، وأنزلنا هذا الكتاب المبارك)[2].

والعَلَمُ فيما عكس فيه الترتيب إيماءً إلى تعظيم المؤخر قوله تعالى: ﴿**فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ**﴾ [البلد: ١١- ١٧].

(١) التحرير والتنوير ق ج٢ ١٧٥.
(٢) الكشاف ٢/ ٦٢.

فمن الثابت أن أعمال البرّ من عتق وصدقة وغيرهما لا يدعى إليها إلا من آمن، فتقديمها على الإيمان، وعطفه عليها بحرف التراخى ضرب من التجوز فى الترتيب، قصد به الترقى من أعمال الجوارح الظاهرة إلى عمل القلوب وهو الإيمان، إشارة إلى أن الله لا يعتد بعمل صالح ما لم يكن باعثَه إيمان صادق، ونيّة تخلص هذا العمل لوجه الله الكريم. لذلك أبطل الله أعمال البر إذا ما قارنها الرياء، وجعلها كأعمال الكفار، الذين لا يقبل الله منهم صرفًا ولا عدلاً ﴿**كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا**﴾ [البقرة: ٢٦٤] وهذا ما صرح به الزمخشرى كشفًا عن سر مخالفة الظاهر فى الترتيب. فقال: (جاء بثم لتراخى الإيمان وتباعده فى الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة، لافى الوقت، لأن الإيمان هو السابق المقدّم على غيره، ولا يثبت عمل صالح إلا به)[1].

وللدكتورة بنت الشاطئ فى تقديم فك الرقبة والإطعام رأى، تنحو به منحى التركيز على المقدّم والاهتمام به، وبيان قوة أثره فى تحقق الإيمان، فإذا ما ضعف الشعور بالأخوة الإنسانية، وانعدمت الدوافع النبيلة، لفك العانى وإطعام الجائع، فلا قيمة لهذا الإيمان، فبين المتعاطفين من التلازم ما لا تصح معه المباعدة التى ترمز إلى التفاوت فى الدرجة. تقول بنت الشاطئ: (عَطْف الإيمان بثم على ما قبله يبيح لنا أن نفهم أن تحقيق الكرامة الإنسانية بفك الرقبة، والعدالة الاجتماعية بإطعام يتيم ذى مقربة، أو مسكين ذى مترية، لازمان للإيمان وما بعده، من تواص بالصبر والمرحمة. الإنسان لا يكون مؤمنًا ما لم يكن له من نفسه وازع يرده عن الطغيان، ويلزمه حده، فلا يسترقُّ بشرًا مثله، ولا يتجاهل حق يتيم ومسكين. وأنَّى للإنسان أن يؤمن بوجود إله خالق قادر عليم، ما لم يتحرر أولاً من غرور جاهه وقوته وثرائه، ذلك الغرور الذى يعطل شعوره نحو

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٧.

أخيه الإنسان، ويجعله يحسب أن لم يره أحد، ولن يقدر عليه أحد، فالإيمان بالله نعمة لا تتاح لقساة القلوب، غلاظ الأكباد، عُمْيِ البصائر لا يميزون بين الخير والشر. كل هذا مما يعطيه سبق فك الرقبة والإطعام، على الإيمان الذى جاء معطوفًا عليهما بلفظ «ثم». لكن المفسرين عطَّلوا هذا الملحظ الجليل، بل عسكوا الوضع، فجعلوا «ثم» مقصودًا بها إبعاد الإيمان عن فك رقبة، وإطعام يتيم أو مسكين، فلا يكون الإيمان معهما فى مرتبة واحدة)[1].

ومع ما يبدو فى هذا التفسير من وجاهة فى التعليل لتقدم المعطوف عليه، فإنه يتغاضى عن بيان السر فى إيثار حرف المهلة، حيث كان العطف بالواو مؤديا إلى ما ذَهَبَتْ إليه. وإغفال الفروق بين معانى الحروف يذهب بأسرار النظم.

ولعلى أرى عكس ما قالت، ذلك أن حرف التراخى بما أومأ إليه من التباعد الرتبى بين المتعاطفين، ينبه إلى وجوب أن تجرد هذه الأعمال من التظاهر، وابتغاء المجد والجاه بها، فإن وراءها مرتبة أعظم، حين يكون الإيمان هو الذى يشيع الفضائل النفسية، ويشكل السلوك والدوافع النبيلة، لذلك جعل التفاضل بالإيمان مقرونا بالتواصى بالصبر والرحمة، وهما من الفضائل النفسية التى يكون فك الرقبة والإطعام من آثارها. وهذا ما أحسن التعبير عنه صاحب الظلال حين قال: (فالإيمان مفروض وقوعه قبل فك الرقاب وإطعام الطعام، وهو الذى يجعل للعمل الصالح وزنا فى ميزان الله، لأنه يصله بمنهاج ثابت مطرد، فلا يكون الخير فلتة عارضة ترضيه، كمزاج متقلب، أو ابتغاء مَحْمَدة من البيئة أو مصلحة، وكأنما قال: (فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيمًا ذا مقربة أو مسكينًا ذا متربة، وفوق ذلك كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة)[2].

ومن المواطن التى تبدو فيها مخالفة الأصل فى الترتيب، قوله تعالى: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [آل عمران: ٥٩] ذلك أن خلق آدم كان بهذه الكلمة، وهى فى تصور العقل

(١) التفسير البيانى للقرآن الكريم ١/ ١٨٨.

(٢) فى ظلال القرآن ٦/ ٣٩١٣.

أسبق فى الوجـود، لأن الخلق متـرتب على أمر التكوين، وإن كـانا فى الحقيـقة يقعان فى آن، لأن أمر التكوين هو تعلق القدرة بتنجيز ما تعلقت به إرادته سبحانه وتعالى، وعلى أية حـال فليس الخلق بأسبق وجـودًا من الأمر بكَوْنه، فتـعين أن يكون التـرتيب مـجازيّاً، إشـارة إلى أن المعطوف أدل على قـدرة الله، وأعظم مما عطف عليه، فـإذا كان خلق آدم من تـراب عظيمًـا، فإن أعظـم منه أن يوجـد هذا الخـلق العظيم بالكلمة، لا بالمعالجة والصناعة، وليس ثمة ضرورة إلى تكلف القول بأن «خَلَقَه» مـعناه: ابتدأ خلقه، لأن المقام تعجيب وإظهـار لكمال القدرة، فلا يناسبه تجـزئة هذا الخلق، كما لا يناسبه القول بأنه خلـقه جسدًا من طين، ثم نفخ فـيه الروح فصـار بشرا، لأن المشـابهة بين عـيسى وآدم فى تـكوّنهمـا بهذه الكلمة، وإيجادهما بغير أب، وإن كان خلق آدم أغرب، لأنه وجد بغير أب وأم، فشـبه الغريب بالأغرب، فـالحديث عن هذا التطور يطعن فى تمام المشـابهة. هذا فضلاً عن أن خلقه جسدًا من طـين هو بأمر التكوين أيضًا، فلماذا يخص تصويره بشرًا بهذا الأمـر؟ لقد أصاب ابن عاشـور فى بيان سر العطف والتجـوز به حين قـال: (و«ثم» للتراخى الرتبى، فـإن تكوينه بأمـر «كن» أرفع رتبة من خلقـه من تراب، وهو أسـبق فى الوجـود. والتكـوين المشـار إليه بكن هـو تكوينه على الصفة المقصـودة، ولذلك لم يقل: كوَّنه من تراب، ولم يقل: كونه من تراب ثم أحيـاه، بل قال: «خلقـه ثم قال له كن». وقـول «كن» تعبـير عن تعلـق القدرة بتكوينه حيّاً ذا روح، ليعلم السامعون أن التكوين ليس بصنع يد، ولا نحت بآلة، ولكنه بإرادة وتعلق قدرة، وتسخير الكائنات التى لها أثر فى تكوين المراد)[1].

وهذا ينسحب على العطف بثم فى قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ**﴾ [الأعراف: ١١]؛ حـيث دلت «ثم» على أن خلق الله للإنسـان فى هذه الصورة البديعـة هو أعظم من الخلق ذاته، وهو مجـال الامتنان بما ميّـز الله الإنسان من

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٢٦٣.

حسن الهيئة والشكل، وإن اشترك مع الحيوان فى كونه مخلوقًا، وكأن الله تعالى أراد أن يلفت الإنسان إلى عظيم نعمته فيما أبدع من صورته، وتلك نعمة ظاهرة فى الخلق، تقوده إلى نعم أخرى خفية، من كمال الإحساس، والقدرة على التمييز والتفكير والإبداع، ففى التصوير شرف الإنسان على سائر صور المخلوقين، وإليه أومأ حرف المهلة. أما ما ذهب إليه الأخفش من أن «ثم»: هنا بمعنى الواو[1]. هربًا من حقيقة أن التصوير لا يتراخى عن الخلق، فهو مما يمحو خصائص الحروف، وتمايز دلالاتها، لذلك خطّأه الزجاج قائلاً: (زعم الأخفش أن «ثم» ههنا فى معنى الواو، وهذا خطأ لا يجيزه الخليل وسيبويه، وجميع من يوثق بعربيته. إنما ثُم للشيء الذى يكون بعد المذكور قبله لا غير، وإنما المعنى فى هذا الخطاب ذكر ابتداء خلق آدم، فإنما المعنى: إنا بدأنا خلق آدم ثم صورناه)[2].

أحسن الزجاج فى رده ما قال الأخفش، لكنه لم ينفذ إلى سر العطف بهذا الحرف، وكان تأوله الخلق بالبدء كلام نحاة يبحثون عن صحة المعنى فحسب، فإن التصريح بآدم فى أمر الملائكة بالسجود له بعد الخطاب العام، دليل على أن المخاطبين أولا هم بنو آدم، ليطَّرد الخطاب فى هذه الآية مع الخطاب فى الآية قبلها: ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ**﴾ [الأعراف: ١٠] وليكون ذكر السجود لآدم تشريفًا لهذا الجنس. و«ثم» فى الموضعين دلت على تفاوت صفات الخلق والتصوير والسجود، فالتصوير حالة كمال فى الخلق، وسجود الملائكة لآدم أعظم تكريم للإنسان، يفوق التكريم الحسى المتمثل فى جمال الخلق والتصوير.

وقد أبدع الطيبى فى كشفه عن سر العطف بثم فى قوله «ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» فيما نقله الألوسى عنه: (يمكن أن تحمل «ثم» على التراخى فى الرتبة، لأن مقام الامتنان يقتضى أن يقال: إن كون أبيهم مسجود للملائكة أرفع

(١) معانى القرآن للأخفش ١/ ٢٩٤.
(٢) معانى القرآن وإعرابه ٢/ ٣٥٤.

درجة من خلقهم وتصويرهم، وفيه تلويح إلى شرف العلم، وتنبيه للمخاطبين على تحصيل ما فاز به أبوهم من تلك الفضيلة، ومن ثم عقب فى البقرة الأمر بالسجود مسألة التحدى بالعلم)[1].

وبهذا تتناغم المتعاطفات متصعّدة فى درج الارتقاء، من الخلق إلى التصوير الذى هو إبراز للجمال المادى، ثم إلى السجود الرامز إلى الجمال المعنوى الذى به شرف الإنسان الحقيقى، وهو العلم، حثّاً على اكتساب ما به كان شرفه وغاية وجوده.

والعجيب أن الزمخشرى يفسر الخلق هنا بخلق آدم طينًا غير مصور[2]، ليتسنى عطف التصوير بثم حملا على حقيقة معناها، فيجىء كلامه أشبه بكلام النحاة، ثم يحلق فى سماء البلاغة حين يعرض لقوله تعالى من سورة الزمر: ﴿ **خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ [الزمر: ٦] فيقول: (فإن قلت: ما وجه قوله ثم جعل منها زوجها» وما يعطيه من التراخى؟ قلت: هما آيتان من جملة الآيات التى عددها دالاً على وحدانيته، وقدرته تشعيبَ هذا الخلق الفائت للحصر. من نفس آدم، وخلق حواء من قُصَيراه، إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرة، والأخرى لم تجر بها العادة، ولم تخلق أنثى غير حواء من قُصَيْرى رجل، فكانت أدخل فى كونها آية، وأجلب لعجب السامع، فعطفها بثم على الآية الأولى، لدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزيّة، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية، فهو من التراخى فى الحال والمنزلة، لا من التراخى فى الوجود)[3].

الدلالة على أن المعطوف أغرب وأعجب هى التى أشاعها حرف المهلة هنا، وهو من لطيف المعانى التى كثيرًا ما ينفرد بها جار الله، لكن ربما يعكر على هذا المعنى اللطيف، أن القرآن فيما أشبه هذا النظم من سورتى النساء والأعراف جاء

(١) روح المعانى ٨/ ٨٦.
(٢) انظر الكشاف ٢/ ٦٨.
(٣) الكشاف ٣/ ٣٨٨.

العطف فيهما بالواو، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ**﴾ [النساء: ١] وقال فى الأعراف: ﴿**هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فلماذا أوثر الحرف الدال على أن المعطوف أعجب وأغرب فى سورة الزمر دون ما أشبهه من النظم فى سورتى النساء والأعراف.

أجاب الغرناطى بقوله: (وأما الجواب عن السؤال الثالث، وهو زيادة «ثم» فى سورة الزمر، فلما قصد من الامتنان والإنعام على هذا الجنس الآدمى، ولتفاوت ما بين الآيتين العجيبتين، من خلق الصنف الإنسانى من شخص واحد، وخلق زوجه منه، فجىء بثم المنبهة على معنى الاعتناء بذكر ما عطف بها، والتأكيد لشأنه للمزية على المعطوف عليه، القائمة مقام التراخى فى الزمان)[1].

والحق أننى لا أجد فى هذا التعليل مَقنعًا، فمقام الامتنان والإنعام بالواو ألصق، لأن الغرض منه هو تعديد النعم، لا إبراز التفاوت بينها، والتعديد أثير الواو من بين حروف العطف، أما إبراز التفاوت، والترقى من خلق غريب إلى خلق آخر أشد غرابة، فذلك مقام الإدلال بالقدرة والإبداع فى الصنع، توصلا إلى الإقرار بعظمة الصانع الحكيم. وذلك ما تنفرد به ثم، وهو الذى استوجبه السياق فى موقعها من سورة الزمر، ردًّا على من ادعوا لله شريكًا، ونسبوا إليه الولد، فساق الله تعالى لهم من عجائب الصنع، ودلائل القدرة ما يشهد بتفرده وعدم احتياجه إلى ما نسب إليه. تأمل هذا السياق اللافح ﴿**لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا**

(١) ملاك التأويل ١/ ١٨٨.

زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٤-٦].

«إن هذا السياق الهادر يبدو وكأنه يصب فى آذان المفترين العذاب صبّاً. ألا ترى إلى هذه التعبيرات: «هو الله الواحد القهار» «ألا هو العزيز الغفار» «ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون» وكيف تتساقط كلماتها وحروفها تساقط السياط الملهبة لظهور المفترين؟ ثم تأمل استدلاله على وحدانيته وغناه عما نسبوه إليه من الشريك والولد، كيف يسوق فيه من الآيات أعجبها، وأدلها على القدرة، من مثل: «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل «وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج» مؤثرًا التجوز بالمسبَّب عن السبب فى وضع الأنعام موضع الماء، ليشيع جوًّا من الغرابة، ويثير العقول والمشاعر بما يخرجها عما ألفته من الارتباط العادى بين الماء والنبات والأنعام، إلى إنزال الأنعام، وكأنه يجذب العقول بعنف، ويدفعها إلى إعادة النظر فى أسرار الخلق. وهذا الكشف عن عجائب الخلق فى الأرحام **﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾**.

هذه العجائب من خلق الله الناطقة بعظيم الصنعة والقدرة يتناغم معها حرف المهلة، بدلالته على التفاوت بين نوع من الخلق عظيم، هو إيجاد البشر من نفس واحدة، وبين خلق أعجب وأغرب لبعده عما جرت به العادة من تناسل الناس وتكاثرهم، وهو خلق حواء من ضلع مَن خُلِقَ من تراب. وذلك ما تفردت به آية الزمر، واستحقت حرف المهلة، بخلافها فى الآيتين الأخريين، حيث كان الغرض فى آية النساء حث المخاطبين على التواصل والتواصى بصلة الأرحام، وإشاعة روح المودة بين يدى تشريع المواريث، حتى يقتلع من النفوس ما جلبت عليه من الأَثَرَة وحب المال، مما يكون سببًا فى تقطيع الأرحام، والجور على ما شرعه الله لهم من حقوق، فكان قوله: **﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾** [النساء: ١] تذكيرًا لهم بهذه الأرحام التى

تجمعهم، وصلات القربى التى تؤلف بينهم. وذلك بحاجة إلى حرف يقرّب، لاحرف يباعد.

وفى سورة الأعراف كان الغرض من العطف بيان نعمة التكاثر إبقاء على الجنس، والتى هيأ لها بما أودعه فى نفس الإنسان من ميل فطرى بين النوعين، ليكون التناسل إرادة إلهية قادرة، يندفع إليها الإنسان بحكم غريزته وسكن الرجل إلى زوجه، وذلك فى معرض حكاية نشأة الخلق. ومثل هذا المقام الذى يبرز التقارب وشدة الائتلاف، ينافيه «ثم» بدلالتها على التفاوت والبعد.

• التقارض بين حرفى المهلة والجمع

مما التبس فيه موضع الواو بثم قوله تعالى: ﴿**وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ**﴾ [يونس: ٤٦] لما كانت شهادة الله على أفعال المشركين سابقة لرجوعهم إليه. اندفع بعض النحاة واللغويين إلى القول بأن ثم فى هذه الآية بمعنى واو العطف، على ما صرح به الثعالبى فى فصل عقده لوقوع بعض حروف المعانى موقع بعض[(١)]. وتأول الزمخشرى والرضى وغيرهما الشهادة بالمجازاة على سبيل التجوز بالسبب عن المسبب. يقول الرضى: (وأما قوله تعالى: ﴿**فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ**﴾ أى ثم يجازيهم بما عملوا، لأنه كان شهيداً على ما يعملون فأقام العلة مقام المعلول)[(٢)].

وظاهر كلام الزمخشرى أن التراخى هنا حقيقى[(٣)]، وهو ما صرح به السعد فى حاشيته على الكشاف حيث قال: (فإنه لا يستقيم معناه الظاهر، وهو كون شهادة الله على أفعالهم مترتبة على رجوعهم إليه، وإنما لم يحمله على التراخى فى الرتبة، بمعنى أن هذه أعلى رتبة من ذلك، لقلة الربط فى ذلك وكماله فيما ذَكَر، ولا خفاء فى أن التراخى فيما اختار من الوجهين على ظاهره، ليس فى أولهما ترتبى، لظهور أن عقابهم إنما هو رجوعهم إليه)[(٤)].

---

(١) ينظر فقه اللغة وسر العربية ٣٥٦.
(٢) شرح الكافية ٢/ ٣٦٧.
(٣) ينظر الكشاف ٢/ ٢٣٩.
(٤) حاشية السعد ٢/ ٥٥٢.

وأرى -والله أعلم- أن حملها على المجاز باستعارة معناها للترتيب الرتبى أليق بمقام التهديد، وذلك لأن قوله «فإلينا مرجعهم» وعيد بأنه سيأخذهم بسوء فعالهم، وتقديم المجرور المفيد للاختصاص تشديد فى هذا الوعيد على ما صرح به الزمخشرى فى قوله تعالى ﴿**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ**﴾ [الغاشية: ٢٥] فقال هناك: (فإن قلت: ما معنى تقديم الظرف؟ قلت: معناه التشديد فى الوعيد، وأن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام)[1] وجاء قوله (ثم الله شهيد على ما يفعلون) بلوغًا بالتهديد إلى الغاية فى الإحاطة بكل أفعالهم، ومجازاتهم عليها، لأنه يشاهدها ويحصيها، كما جاء قوله ﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**﴾ تصعيدًا فى التهديد، بعد قوله ﴿**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ**﴾ حيث قال ابن المنير فيه: (ومعنى «ثم» الدلالة على أن الحساب أشد من الإياب، لأنه موجب العذاب وبادرته)[2] وإذا كان الزمخشرى وغيره يفسرون الشهادة بالمجازاة، وهى لا شك أشد من المحاسبة التى هى بوادر العذاب فلم لم يقولوا هناك ما قيل هنا من الترقى فى التهديد؟!

ومما عدل فيه عن الواو إلى «ثم» قوله تعالى فى ختام قصة نوح عليه السلام: ﴿**قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ**﴾ [الشعراء: ١١٦- ١٢٠] فالإغراق أسبق من إنجاء نوح ومن آمن به، لأن تمام النجاة باستواء السفينة على الجودى، بعد ابتلاع الأرض ماءها وإقلاع السماء عن صب جام غضبها، كما صورته سورة هود: ﴿**وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ**﴾ [هود: ٤٢- ٤٤] فدل قوله ﴿**فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ**﴾ على سبق غرق ابن نوح مع

(١) الكشاف ٤/٢٤٨.
(٢) الإنصاف ٤/٢٤٨.

المغرقين قبل استواء السفينة ونجاة من فيها. فإن لم تكن النجاة متأخرة عن الإغراق، فلا أقل من أن تكون مقارنة له، وهو موضع الواو على أية حال، والدليل على ذلك وقوعها فى قوله عز وجل ﴿**فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ**﴾ [الأعراف: ٦٤]. لذلك قال الشهاب: إن ثم هنا للتفاوت الرتبى[1]، لكنه لم يكشف عن وجه التفاوت، ولا عن سر وقوع «ثم» هنا، والواو هنالك. والمعروف أنهم حين يقولون بالتفاوت الرتبى، فإنهم يقصدون أن المعطوف أرفع درجة من المعطوف عليه. فهل إغراق قوم نوح أعظم من إنجاء موسى؟ أقول نعم، إنه أعظم فى تحقيق الغرض الذى سيقت من أجله القصة، وهو بث نذر الهلاك والوعيد فى نفوس المكذبين من المشركين، والتعريض بأنه ينتظرهم من العذاب مثلما وقع بأسلافهم من الكافرين. ثم إن إغراق أمة بأكملها دون أن ينجو منها أحد غيرَ منَ وعد الله بنجاته من المؤمنين. أدل على سوط القدرة، وأقوى أثرًا فى العقل والعادة من إنجاء فئة قليلة من الناس.

أما اختصاص هذه السورة بحرف المهلة، دون ما جاء فى سورة الأعراف، فلأن السياق هنا فيه مبالغة من المكذبين فى تحدى نوح عليه السلام، وهو قولهم ﴿**لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ**﴾ فقوبلت هذه المبالغة فى التحدى بالمبالغة فى إهلاكهم بخلافها هناك، فإنه عَقَّب تكذيبهم بإنجائه وإغراقهم، دون أن نجد للمكذبين حديثًا.

وهذا هو أيضًا السر فى العدول عن الواو إلى «ثم» فى قصة موسى مع فرعون. فقد عطف الإغراق على الإنجاء بالواو، فى قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿**وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾ [البقرة: ٤٩] وعطف بحرف التراخى فى قوله تعالى من سورة الشعراء: ﴿**فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٢٢.

﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣- ٦٥] فكان للترتيب الرتبى دلالته على أن نعمة الإغراق كانت أعظم بعد هذا التحدى من فرعون الذى بلغ ذروته حين تعقب موسى ومن معه، وصار منهم قاب قوسين أو أدنى، مما ملأ قلوب أتباع موسى رعبًا، كما ينطق به السياق ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣- ٦١]. فكان الإغراق بعد هذا التحدى والإرهاب، أعظم النعم على بنى إسرائيل. فلما لم يظهر لفرعون وقومه أثر فى سورة البقرة، وكان الغرض تعديد النعم وقعت الواو موقعها الذى لا يصلح فيه غيرها، كما وقعت ثم موقعها الذى أبرزت فيه هول الإغراق وجلال القدرة فى إهلاك هذه الجموع بعد أن كادت تطبق على قوم موسى حتى قال أصحابه ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾.

وانظر إلى هذه المباعدة وما تبعها من المبالغة فى التجريم حين اقترضت «ثم» موضع الواو فى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢]، وكيف التقت المباعدة فى حرف المهلة، مع المباعدة فى الضلال التى عبر عنها قوله ﴿فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؟!

قارن ذلك بقوله تعالى فى مجال تعديد الجرائم على المشركين فيما اشتبه نظمه بهذه الآية: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

تأمل موقع الواو فى قوله ﴿وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ وقوله ﴿فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ حيث لم يقل ثم كفرتم -ثم استكبرتم، لأن الغرض هو تعديد الجرائم وليس المباعدة بين المتعاطفين، كما هو الشأن فى آية فصلت. حيث

أزاحتها «ثم» هناك، لإبراز إغراق المكذبين بالقرآن فى الضلال، بعد أن فنّد أوهامهم وافتراءاتهم فى قوله عز وجل ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**﴾ [فصلت: ٤١- ٤٤] فقابل بحرف البعد إبعادَهم فى التكذيب والضلال، على ما صرح به فى تذييل الآيات ﴿**أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**﴾ ﴿**فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**﴾ فكان ذلك ضربًا من الإعجاز فى الملاءمة بين الألفاظ ومعانيها.

قال الغرناطى فى بيان المغايرة بين الموضعين بحرفى المهلة والجمع: («ثم» للترتيب الزمانى واقتضاء المهلة فيه. وتأتى أيضًا لبيان ما يعطف بها، وأن له موقعًا وخطرًا وبه اعتناء، وقد مر بيان ذلك، وأنَّ تفاوت الرتب كتفاوت الزمان. ولا توقُّف فى أن كفرهم بالقرآن، بعد علمهم أنه من عند الله كما هو، وكما قد علم من سعد بالإيمان، وإن كذبوا هم فلا شك أن ذلك مرتكب شنيع، وضلال بعيد. فجىء هنا بثم لتحرز عظيم اجترائهم، وشنيع مرتكبهم، فجاءت على ما يجب.

ولما قصد فى آية الأحقاف زيادة شهادة عليهم بتصديق من تقرر عندهم علم الكتاب المنزل قبل كتابنا ممن يُعْرف علمه، فشهد بما عنده من العلم أن هذا الذى جاء به محمد ﷺ إنما هو من عند الله، وكان ذلك أبين فى الحجة عليهم لم يرد بثم، لاقتضائها مهلة لم تقصد هنا)[1].

(١) ملاك التأويل ٢/ ٨٤٦.

ثالثًا:التجوز فى التراخى

• الفرق بين التجوز فى الترتيب، والتجوز فى التراخى

التراخى معنى من معانى «ثم»، وبه امتازت عن شقيقتها الفاء، ويقصد به تخلل الزمن بين المتعاطفين، فإذا ما قامت قرينة على عدم إرادة المهلة الزمنية تأولها رجالات البيان ببعد المراتب والأحوال. وقد التبس هذا التراخى الرتبى بالترتيب الرتبى فى كلام المفسرين ورجالات البيان، وأطلقوهما إطلاقًا واحدًا فى كل موطن عكس فيه الترتيب، أو تعذرت المهلة بين المتعاطفين. وإليك مثلاً من هذا الالتباس. فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [الأنعام: ١٥٣ - ١٥٤]. وهو مثل واضح لعكس الترتيب يقول الشيخ ابن عاشور: («ثم» هاهنا عاطفة على جملة «قل تعالوا»، فليست عاطفة للمفردات، فلا يتوهم أنها لتراخى الزمان، بل تنسلخ عنه حين تعطف الجمل، فتدل على التراخى فى الرتبة، وهو مهلة مجازية)[1] فعبر بالتراخى الرتبى بدلاً من الترتيب الرتبى.

وفى قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٤]. والترتيب فيه على حقيقته، لتقدم الإنجاء على الإشراك، يقول: («وثم» من قوله «ثم أنتم تشركون» للترتيب الرتبى، لأن المقصود أن إشراكهم مع اعترافهم بأنهم لا يلجأون إلا إلى الله فى الشدائد أمر عجيب، فليس المقصود المهلة)[2] فيطلق الترتيب الرتبى على ما هو تراخ فى الرتبة، إذ الدافع إلى حمل «ثم» على التجوز هو عدم إرادة المهلة الزمنية، مع صحة الترتيب الحقيقى. وهو فى نهاية العبارة يقول: «فليس المقصود المهلة الحقيقية». وهذا تعليل للتجوز فى التراخى لا فى الترتيب.

والفصل بين الضربين: أن الترتيب الرتبى نوع من التجوز باستعارة «ثم» الدالة على الترتيب الزمنى لمعنى التدرج فى المراتب. ويكون فيما تقطع القرائن

(١) التحرير والتنوير ج٨ ق١/ ١٧٥.
(٢) التحرير والتنوير ٧/ ٢٨٣.

بأن المعطوف يسبق المعطوف عليه فى الوجود، أو يواكبه فى الوقوع، فيؤَوَّل الترتيب بالتدرج والارتقاء فى المنزلة، ويكون القصد من تأخير ما حقه التقديم الإشارة إلى علو منزلته. وبذلك نُبقى على معنى الترتيب فى «ثم» ولكنه ترتيب معنوى لا حسى.

أما التراخى الرتبى فهو ضرب آخر من التجوز كذلك، يستعار فيه التراخى فى الزمان للتراخى فى الرتبة، وهو يومئ إلى التفاوت والبعد بين منزلة المعطوف ومنزلة ما عطف عليه. ويكون فيما يدل السياق على عدم إرادة المهلة الحقيقية. فهناك يستعار الترتّب الوجودى لترتب المنازل، إيماء إلى أن المعطوف أرفع درجة من المعطوف عليه. وهنا يستعار البعد الزمانى للبعد بين المنزلتين، والتفاوت الشديد بينهما، فالفرق بين الترقى والتفاوت هو الفرق بين الترتيب الرتبى والتراخى الرتبى. ففى الأول ترقٍّ من أمر غريب أو عظيم إلى ما هو أغرب أو أعظم. وفى الثانى يومئ البعد الزمنى إلى عظم التفاوت بين المتعاطفين. فهو مقارنة بين أدنى الدرجات وأبعدها. والمثال على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ**﴾ [الروم: ٢٠]. فإن «إذا» بدلالتها على المفاجأة قرينة على عدم إرادة المهلة الحقيقية بين الخلق من تراب، وصيرورتهم بشرًا يملأون الأرض حركة وحياة، فكان لابد من تأويل التراخى بالتفاوت الرتبى. وهو ما رجحه أصحاب الأذواق من أهل البيان. قال الألوسى: (وقال العلامة الطيبى: إنها للتراخى الرتبى، لأن المفاجأة تأبى الحقيقى. ورد بأنه لا مانع من أن يفاجئ أحدًا أمرٌ بعد مضى مدة من أمر آخر، أو أحدهما حقيقى والآخر عرفى. وتُعُقِّب بأنه على تسليم صحته يأباه الذوق، فإنه كالجمع بين الضبّ والنون. فما ذكره الطيبى أنسب بالنظم القرآنى)[1] والتراخى الرتبى هنا يومئ إلى بعد ما بين التراب الذى هو منشأ الخلق، وهو مادة ميتة، لا صلة لها بهذا الإنسان الذى يجرى الدم فى عروقه، ويملأ الأرض حياة وحركة، فما أبعد

(١) روح المعانى ٢١/ ٣٠.

البشر فى صورهم وهم ينتشرون فى الكون، من هذا التراب الجامد الذى يطأونه بأقدامهم، فالغرض من التراخى هو إبراز التفاوت، وبعد ما بين الخلقين.

أما الترتيب الرتبى فإن الغرض فيه الدلالة على أن الثانى أعظم درجة من الأول، كما تراه فى قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ**﴾ [الأنعام: ٢]. فقد عطف «قضى أجلاً» على «خلقكم من طين» والترتيب بينهما ليس حقيقياً، لأن قضاء الأجل أسبق من الخلق، ولذلك جعله المفسرون ترتيبًا ذكرياً أو إخبارياً[١]، وهو استعارة للترتيب فى المنازل، لأن قضاء الأجل فى مجال التهديد أشد وأعظم، لما فيه من التعريض بالحساب والعقاب، فهو تدرج وارتقاء، لا إبرازٌ للتفاوت.

• أسرار التراخى الرتبى

لخص صاحب البرهان الأغراض البلاغية للخروج من تباعد الزمن إلى التباين فى الأحوال والصفات بقوله: (والحاصل أنها للتراخى فى الزمان، وهو المعبر عنه بالمهلة، وتكون للتباين فى الصفات وغيرها، من غير قصد مهلة زمانية، بل ليعلم موقع ما يعطف بها وحاله، وأنه لو انفرد لكان كافيًا فيما قصد فيه، ولم يقصد فى هذا ترتيب زمانى، بل تعظيم الحال فيما عطف عليه، وموقعه، وتحريك النفوس لاعتباره)[٢].

هذا كلام دقيق فى توجيه الغرض من التجوز بالمهلة عن تعظيم حال المعطوف بها، وتركيز الاهتمام عليه لإدراك ما فيه من الزيادة فى الفضل أو الشدة، واستقلاله بتحقيق الغرض من الكلام.

• التفاوت فى الفضل

والزمخشرى.. وهو رائد القول بالتراخى الرتبى تجوزًا ببعد الزمان عن البعد فى الحال والمنزلة، يذهب دائمًا إلى الترقى، بحيث يكون المعطوف أعلى درجة

(١) ينظر حاشية الشهاب ٤/ ١٣، وروح المعانى ٧/ ٨٧.
(٢) البرهان فى علوم القرآن ٤/ ٢٦٨.

فى الفضل أو الشدة، وذلك معنى اختَصَّ به حـرف التراخى، بخلاف الفاء فإنه أجاز فـيهـا أن يكون المعطوف أعلى درجـة على سبـيل الترقى، أو أدنـى درجة فيكون تقديم اللفظ دليـلاً على التقدم فى الشرف والرتبـة، وقد فصلنا ذلك فى حديثنا عن الفاء.

ولعـل السـر فـى ذلك أن الفـاء تسـتعـار للترتيب الرتبى فحـسب، والترتيب لا يستوجب البـدء بالأدنى، بل الأكثر أن يقدم الأشرف اعـتناء به، ليومئ تقدم اللفظ إلى التقدم فى الفضل، ومن ثم استعيرت الفاء للترتيب المعنوى بنوعيه.

أما «ثم» فإن الترتيب يقـترن فيها بالتراخى، والتراخى فـسحة فى الزمن تتيح للمتـأخر فـرصة الإفادة من المتـقدم والبناء عليـه، فهى بالتـرقى والتصـعد أحق وأجدر. وذلك ما تؤيده النصوص القرآنيـة، وتشى به أغراضها، وهو الذى جعل الزمخشرى يقول به أبدًا فى كل مواقع التجوز بحرف المهلة.

وأمّـا ما ذهـب إليه صـاحب الإنصـاف من أن علو درجة المعطوف أمر أغلبى لا كلى، معتـرضًا على صاحب الكشاف فإنه لم يَسْلَم له مـا اعترض به. وذلك عند قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ**﴾ [الروم: ٢٥]. قال الزمخشرى: (وإنما عطف على قيام السـموات والأرض بثم، بيـانًا لعظيم ما يكون من ذلك الأمـر، واقتـداره على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور قوموا، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر)[1].

إن تعظيم المعطوف مراعى فيـه المخاطبون من المشركين الذين استبـعدوا البعث وأنكروه، فردّ عليهم فى الآيات السـابقة بقوله: ﴿**اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [الروم: ١١]. وضرب لهم أمثلة للحياة بعـد الموت فيما يشاهدونه، ويتكرر على أعـينهم ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ**﴾ [الروم: ١٩]. فشبه بعـثهم وإخراجهم من

(١) الكشاف ٣/ ٢٢٠.

قبورهم بما يرونه من صور الأحيـاء (فى كل لحظة يخرج حى من ميت، ويخرج مـيت من حى، وفى كل لحظة يـتحـرك بُرْعم سـاكن من جـوف حـبـة أو نواة فيفلقهـا، ويخرج إلى وجه الحياة، وفى كل لحظة يجف عود أو شـجرة تستوفى أجلها، فتـتحول إلى هشيم أو حطـام، ومن خلال الهشيم والحطام توجـد الحبة الجـديدة الساكنـة المتهيئة للـحياة والإنبات، ويوجـد الغاز الذى ينطلق فى الجو أو تتغذى به التـربة، وتستعد للإخصـاب، وفى كل لحظة تدبّ الحياة فى جنين، إنسـان أو حيـوان أو طائر، والحـبـة التى ترمى فى الأرض، وتخـتلط بالتـربة، وتشحنها بالغازات هى مادة جديدة للحياة، وغذاء جديد للنبات)[1].

هـؤلاء الذين استـبعـدوا البـعث كيف إذا أُخـبـروا بأن الله يبعثـهم بالكلمة، ولا يسـتغـرق زمن بعث الأولين والآخرين أكـثر من دعـوتهم للقـيام؟ إن قـيام السموات والأرض بأمر الله يجرى مجرى العادة المتكررة على الحس، أما ما أخبر به عن كيفية البعث فهو غريب عجـيب. فهذا التعظيم للمعطوف مراعى فيه حال المخـاطب، وكـون البعـث يتم بأمـر التكوين لا بالمعـالجـة، لذلك لم يقل «ثم تخرجون»، وإنما قال «ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون» فإذا كان البعث أمـرًا عظيمًا فى ذاته فـإن كونه بهذه الكيـفية أعظم وأعـجب. وقد لفت الزمخشرى النظر إلى اختلاف المواقع والأغراض، ومـا تقتضيه من تهوين الأشياء أو تهويلها (فـإن قلت: ما بال الإعادة استعظمت فى قـوله «ثم إذا دعاكم دعوة» حتى كـأنها فضـلت على قيام السـموات والأرض بأمره، ثـم هونت بعد ذلك؟ قلت: الإعادة فى نفسها عظيمة، ولكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء)[2].

لكن ابن المنير لم يقنعه جواب الزمـخشرى، ولم يسلم بأن الإعادة أفضل من قيام السـموات والأرض بأمر ربها، فقـال: (والمخلص -والله أعلم- جعل «ثم» على بابها لتـراخى الزمان، لا لتراخى المراتب، وإن سلم أنهـا لتراخى المراتب، فعلى أن تكون مـرتبة المعطوف عليه الـعليا، ومرتبة المـعطوف هى الدنيا، وذلك

(١) فى ظلال القرآن ٥/ ٢٧٦٢ (٢) الكشاف ٣/ ٢٢٠.

نادر فى مجيئها لتراخى المراتب، فإن المعطوف حينئذ فى أكثر المواضع أرفع درجة من المعطوف عليه)[1].

لقد كان الزمخشرى أكثر نفاذًا إلى أغوار النص، وأرهف أذنًا فى إصغائه لهمس السياق، فى حين وقف ابن المنير يوازن بين خلق السماء والأرض، وبين بعث الموتى أيهما أعظم. دون التفات إلى أغراض النظم ودواعيه. وقد أجاد الشهاب فى رده عليه، فقال: (والمراد عظمه فى نفسه، وبالنسبة إلى المعطوف، وكونه أعظم من قيام السماء والأرض، لأنه المقصود من الإيجاد والإنشاء، وبه استقرار السعداء والأشقياء فى الدرجات والدركات، وهو المقصود من خلق الأرض والسموات، فاندفع اعتراض صاحب الانتصاف بأنه -على تسليمه- مرتبة المعطوف عليه هنا هى العليا، مع أن كون المعطوف فى مثله أرفع درجة أكثرى لا كلى، كما صرح به الطيبى هنا، فلا امتناع فيما منعه، وهى فائدة نفيسة)[2].

ومما دل فيه التراخى على التفاوت فى الفضل قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا**﴾ [الفرقان: ٤٥ - ٤٦].

قلت: إن «ثم» أداة رقيقة هامسة، تنساب معها المعانى إلى النفس فى لطف، وتحرك الزمن فى هدوء، وهذا معنى يصاحبها فى حقيقتها ومجازها. والتعبير هنا (يرسم مشهد الظل، ويد الله الخفية التدبير، تمده فى رفق، وتقبضه فى لطف «ألم تر إلى ربك كيف مد الظل» «ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا». والظل هو ما تلقيه الأجرام من الظلمة الخفيفة حين تحجب أشعة الشمس فى النهار، وهو يتحرك مع حركة الأرض في مواجهة الشمس، فتغير أوضاعه وامتداداته وأشكاله. والشمس تدل عليه بضوئها وحرارتها، وتميز مساحته وامتداده

(١) الإنصاف ٣/ ٢١٩.
(٢) حاشية الشهاب ٧/ ١٩.

وارتداده. ومتابعةُ خطوات الظل فى مده وانقباضه يشيع فى النفس نداوة وراحة، كما يشيع فيها يقظة لطيفة شفيفة)[1].

إنك لا تشعر بالظل وهو يفيض ببطء، ولا تحس به وهو ينحسر، وإنما يتخلل إليك وعنك فى رفق ولطف، وهذا ما يناسب حرف المهلة بما فيه من مطل الزمن، لكن هذا لا ينسيك أن جعل ضوء الشمس دليلاً عليه لا يتراخى عن مد الظل، بل هو مصاحب له، فلا يظهر الظل ولا حركته إلا بضوء الشمس، فالمهلة مستعارة لإبراز فضل الشمس، وأثرها العظيم على الحياة والأحياء، فإذا كان الظل نعمة عظيمة فإن نعمة الضوء والحرارة فى الشمس أعظم، ولولا الشمس لتحول الكون ظلامًا دامسًا لا يرى فيه للظل أثر. أما فضل القبض على المد المعطوف بثم، فإنه مرتبط بالوصف «قبضًا يسيرًا» (وفى هذا القبض اليسير شيئًا بعد شىء من المنافع ما لا يعد ولا يحصر، ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعًا)[2].

ومن روائع أمثلة التراخى الرتبى فى الذكر الحكيم، قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ**﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٣].

فقد كان الظاهر أن يعطف ذكر النعمة بالفاء، لأن ذكر النعمة ضرب من الشكر، فيجب أن يعقب حدوث النعمة والانتفاع بها، كما تقول: أعطيته فشكر، ولا تقول: أعطيته ثم شكر، لكن العدول إلى حرف التراخى هنا وراءه نكتة لطيفة، هى الإيماء إلى أن شكر النعمة عند الله أعظم من النعمة نفسها، لذلك يثيب الله الشاكرين على شكرهم لنعمائه ﴿**سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٤]. مع أن أعظم الناس شكرًا لربه لا يستطيع أن يوفيه حق نعمة واحدة من نعمه، لكن الله بكرمه وفضله يعده من الشاكرين إحسانًا،

(١) فى ظلال القرآن ٥/ ٢٥٦٩.
(٢) الكشاف ٣/ ٩٤.

ويكافئه عليه مكافأة المحسنين، فكان العطف بثم فى قوله «ثم اذكروا نعمة ربكم» تعظيمًا لأجر الذاكرين، ولهذا أوثر الذكر على الحمد والشكر، لأن الذكر عمل قلبى، وهو الذى يحرك الألسنة حتى تلهج بالثناء والشكر للمنعم. ففيه جمع بين الذكر بالقلب واللسان . وهذا المعنى للتراخى الرتبى هنا لم أجد أحدًا أشار إليه.

● **التفاوت فى الشدة**

قال عز وجل: ﴿**وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ**﴾ [الأنعام: ٨]. التراخى الزمنى بين عدم الإنظار وإنزال المَلك غير ممكن، لأن مدلول عدم الإنظار نفى للتراخى، فلابد من حمله على التراخى الرتبى، وبه تصير المفاجأة بالعذاب، لونا آخر من التعذيب أشد وأقسى من القضاء بالعذاب، وهو فى مجال التهديد أقسى إيجاعًا مما لو دخلت الفاء المناسبة لعدم الإنظار، إذ لو قيل: «فلا ينظرون» لجعلته عقابًا واحدًا معجلاً، فتضيع معه المبالغة فى إبراز شدة وقع المفاجأة على نفوس كانت تستعجل العذاب، وتسخر من التهديد به، وذلك ما لا يؤدى على وجهه بغير حرف المهلة على سبيل التجوز. ورحم الله الزمخشرى حين قال: (ومعنى «ثم» بعد ما بين الأمرين: قضاء الأمر وعدم الإنظار، وجعل عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة)[1].

ومنه قوله تعالى على لسان إبليس: ﴿**فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾ [الأعراف: ١٦ - ١٧].

عطف «لآتينهم» على «لأقعدن» بحرف المهلة، والمهلة الزمنية ليست مرادة، لأن المقام مقام تحفّز ومسارعة، لا مقام تريث وانتظار، فالتراخى مستعار للتفاوت بين القعود والإتيان، إذ الأول تزيين ترصد واستهواء، والثانى مهاجمة بكل الوسائل، فالفرق بينهما كالفرق بين الجالس يحارب بالكلمة ويناضل باللسان،

(١) الكشاف ٢/ ٥.

والمنازل فى ساحة القتال بالسيف والسنان. ألا ترى كيف بالغ فى طرق المهاجمة وتنوع منافذها «من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم» حتى لا يترك وسيلة من الوسائل لتحقيق ما أراد. إنه تدرج فى الكيد، وارتقاء فى الوسائل، ومباعدة بين مراحل الحرب وتطوراتها.

ومنه قوله تعالى: ﴿ **سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ** ﴾ [الأعلى: ١٠ - ١٣].

فليس بين تعذيب الأشقى فى النار، وبين ما يكون عليه من حال تنعدم فيها الحياة والموت انقطاع ولا مهلة، لأنها حال مصاحبة للصَّلْى بالنار، والمهلة الزمنية تعنى انقطاع العذاب بين المتعاطفين، وهو ما يأباه مقام التشديد فى الوعيد، فدل التراخى بمعناه المجازى على أن الترجح بين الحياة والموت لون آخر من العذاب أشد وأقسى من الصلى، حتى إن الكافر ليتمنى الموت ليستريح من العذاب والإحساس بآلامه، ﴿ **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ** ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وانظر إلى ما توسوس به «ثم» فى قوله تعالى: ﴿ **لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً** ﴾ [الأحزاب: ٦٠]. حيث خولف الظاهر من عطف الإجلاء، المعبر عنه بعدم المجاورة بالفاء، المشعرة بتعجيل طردهم من المدينة وعدم إمهالهم بها، ووضعت «ثم» موضعها، لتدل على أنه يجمع لهم بين التنكيل بهم فى المدينة وإجلائهم عنها، وأن الإجلاء شر ما ينتظرهم وأقسى عقوبة تنزل بهم، بخلاف الفاء التى تدل بما فيها من معنى التعقيب على أنها عقوبة واحدة هى الطرد من البلاد. وذلك ما حققه الزمخشرى: (فإن قلت: أما كان من حق «لا يجاورونك» أن يعطف بالفاء، وأن يقال لنغرينك بهم فلا يجاورونك؟ قلت: لو جعل الثانى مسببًا عن الأول لكان الأمر كما قلت، ولكنه جعل جوابًا آخر للقسم معطوفًا على الأول، وإنما عطف بثم، لأن الجلاء عن الأوطان كان أعظم عليهم، وأعظم من جميع ما أصيبوا به، فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه)[1].

(١) الكشاف ٣/ ٢٧٥.

ومن التفاوت فى الشدة والمباعدة فى الدرجة بين عذاب وعذاب أعظم منه، قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا** ﴾ [غافر: ٧٠ - ٧٤].

إن مقام التهديد بإيقاع أشد العذاب بالمكذبين يأبى التراخى الحقيقى بين سحبهم مغللين فى النار على وجوههم، وسَجْرهم فيها، وإنما هو التفاوت بين طور من العذاب، وطور أشد وأعظم، لأن السَّجْر معناه أن تغطيهم النار، وتحيط بهم من كل جانب، فيحرقوا ظاهرًا وباطنًا، من سَجَر التنُّورَ إذا ملأه إيقادًا، ولا شك أن ذلك أشد من السحب فى النار، ثم كان تأكدهم من خذلان شركائهم وضياعهم، وذهاب ما كانوا يؤملون نفعه أقسى من العذاب نفسه، لأنهم حينئذ يوقنون بخلودهم فى النار، وتنقطع كل آمالهم فى النجاة.

وعلى غراره جاءت ثم من قوله تعالى: ﴿ **خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** ﴾ [الدخان: ٤٧ - ٤٩]. . ذلك أن صب الحميم على رؤوسهم تصهر به بطونهم وجلودهم يفوق فى شدته جرَّهم إلى النار، ألا ترى كيف سلط الصب على العذاب بدلاً من الحميم على سبيل الاستعارة، وكأن الذى يصب عليهم هو العذاب، لا أسبابه ووسائله، وذلك ما لا يقاس به هولا وفظاعة سحبُهم إلى النار، وهو الذى جسّده حرف المهلة، وكأنه يقول: خذوهم فجروهم جراً عنيفًا حتى تلقوهم فى وسط النار، بل اصنعوا بهم ما هو أشد وأفظع، وهو أن تصبوا عليهم العذاب صبا.

التراخى المجازى فى عطف المكرر

• عطف التوكيد بين النحاة والبلاغيين:

يقول ابن قتيبة: (أعلمتك أن القرآن نزل بلسان القوم، وعلى مذاهبهم. ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز، لأن افتنان المتكلم والخطيب فى الفنون، وخروجه عن شىء إلى شىء، أحسن من اقتصاره فى المقام على فن واحد. وقد يقول القائل فى كلامه: والله لا أفعله، ثم والله لا أفعله. إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع من أن يفعله)[1].

هذا الإلف العربى فى توكيد المعانى وتقريرها بتكرير المفردات والجمل، تختلف طرائقه وأغراضه فى النظم الكريم، تدق أسراره ووجوه بيانه. قال صاحب الطراز: (اعلم أن ما نورده فى هذا القسم ينبغى إمعان النظر فيه، لغموضه ودقة مجاريه، ومن أجل ورود التأكيد من جهة اللفظ والمعنى، والتكرير فى كتاب الله تعالى، ظن بعض من ضاقت حوصلته، وضعفت بصيرته عن إدراك الحقائق، والتطلع إلى مآخذ الدقائق أنه خال عن الفائدة، وأنه لا معنى تحته إلا مجرد التكرير لا غير، وهذا خطأ وزلل، فإن كتاب الله تعالى لم يبلغ حد الإعجاز فى البلاغة والفصاحة سواه من بين سائر الكلمات، ولو كان فيه ما هو خال من الفائدة بالتكرير لم يكن بالغًا هذه الدرجة، ولا كان مختصّاً بهذه المزية)[2].

وأول ما يلاحظ فيما تكرر من ألفاظ القرآن أنه يأتى فى مقامات تقتضى زيادة تقرير المعانى، وتتطلب مزيدًا من الحسم وقطع الأطماع. وأكثرها يأتى فى مواطن التهديد والوعيد. وهى مواطن يكون التكرير فيها بمثابة تتابع قرع الأجراس، وزيادة الضغط على مواطن الإحساس، للتنبيه على ما يحدق بالمخاطبين من الأخطار. مثل قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ التى تكررت فى سورة

(١) تأويل مشكل القرآن ٢٣٥.

(٢) الطراز ٢/ ١٧٧.

المرسلات، وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ فى سورة القمر، وقوله: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧]. وقوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤ - ٣٥].

وثانى هذه الملاحظات، وهى لب حديثنا هنا أن الجمل التى تكررت بألفاظها، تأتى تارة مفصولة بلا عاطف بين الجملتين المكررتين، وأخرى تأتى موصولة بالواو، وثالثة بالفاء ورابعة بحرف التراخى.

وإذا كان الغرض الأصيل من التكرار هو توكيد المعانى وتقريرها، فإن الفصل هو الأحق بها على ما قرره علماء المعانى، وفى مقدمتهم شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر فى قوله: (واعلم أنه كما كان فى الأسماء ما يصله معناه بالاسم قبله، فيستغنى بصلة معناه له عن واصل يصله، ورابط يربطه، وذلك كالصفة التى لا تحتاج فى اتصالها بالموصوف إلى شىء يصلها به، وكالتأكيد الذى لا يفتقر كذلك إلى ما يصله بالمؤكَّد، كذلك يكون فى الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتى قبلها، وتستغنى بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها، وهى كل جملة كانت مؤكّدة للتى قبلها ومبينة لها، وكانت إذا حصلت لم تكن شيئًا سواها)[1] ثم يقول وهو يوجز أحوال الجمل فصلاً ووصلاً: (فاعلم أنا قد حصلنا من ذلك على ثلاثة أضرب، جملة حالها مع التى قبلها حال الصفة مع الموصوف، والتأكيد مع المؤكَّد، فلا يكون العطف فيها البتة، لشبه العطف فيها لو عطفت بعطف الشىء على نفسه)[2].

هنا مكمن الإشكال، ذلك أن لسان العرب حافل بأمثلة عطفت فيها جملة التوكيد على الجملة المؤكَّدة، مما أدى إلى تضارب الآراء فى إجازة مثل هذا العطف أو منعه، أو إجازته بحرف المهلة وحده، دون سواه من حروف العطف، أو إجازته فى «ثم» والفاء ومنعه مع الواو. يقول العلوى فى حاشيته على الكشاف: (قال المصنف فى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ [القمر: ٩]. أى كذبوا تكذيبًا عقب تكذيب.

(١) دلائل الإعجاز ٢٢٧.
(٢) السابق ٢٤٣.

وفى الكتاب العزيز: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٨]. وفيه: ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣ - ٤]. فقد عطف التأكيد فى الآيتين على المؤكَّد، وكأنه إنما يمنع عطف التأكيد على المؤكَّد إذا كان بالواو)[١].

ولست أدرى كيف ينسب العلوى إلى الزمخشرى منع العطف بالواو، مع أن الزمخشرى قال بالتوكيد أكثر من مرة فيما كان معطوفًا بالواو!! ففى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٩ - ١٥٠]. قال فى الكشاف: (وهذا لتأكيد التكرير فى أمر القبلة وتشديده، لأن النسخ من مظان الفتنة والشبهة، وتسويل الشيطان، والحاجة إلى التفصلة بينه وبين البداء، فكرر عليهم ليثبتوا ويعزموا ويجدوا)[٢].

وفى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣]. قال الزمخشرى: «ولو شاء الله ما اقتتلوا» كرره للتأكيد)[٣].

وليس الزمخشرى وحده من بين المفسرين الذين يقولون بالتوكيد فيما عطف بالواو، فإن كثيرًا منهم، ومنهم رجالات البيان قالوا به فى الكتاب العزيز، وإن رفضوه فى مؤلفاتهم البلاغية. فهذا الفخر الرازى يقول فى كتابه «نهاية الإيجاز»، وهو يعدد مواطن الفصل: (فالقسم الأول: هو أن تكون إحدى الجملتين كالتوكيد للجملة الأخرى، أو كالصفة لها.. على ما سيأتى أمثلتها، فلا يجوز إدخال العاطف عليه، لأن الصفة والتوكيد متعلقان بالموصوف والمؤكد لذاتيهما. ولما كان التعلق الذاتى حاصلاً، استغنى عن لفظ يدل على ذلك التعلق)[٤].

(١) تحفة الأشراف ١/ ٢٥٣.
(٢) الكشاف ١/ ٣٢٢.
(٣) الكشاف ١/ ٣٨٣.
(٤) نهاية الإيجاز ٢٢٧.

هذا الرفض لدخول العاطف بين التوكيد والمؤكَّـد -كما أملته قواعد الصناعة- لا نجده عـند الرازى بهذا الحـسم فى تطبيـقاته على النص القـرآنى. ففى قـوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَـا النَّاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِـدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَـا زَوْجَهَـا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيـراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ [النساء: ١]. يقـول فى أحد وجوه ذكرها فى الـغرض من عطف الأمر بـالتقوى على مـثله، وهو الذى قدمـه على سواه: (الأول تأكيد للأمر والحثّ عليه، كـقولك للرجل: اعجل اعجل، فيكون أبلغ من قولك: اعجل)[١].

وقال البيـضـاوى فى قـولـه تعـالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الحشر: ١٨]. قال البيضاوى: («واتقوا الله» تكرير للتأكيد)[٢].

وحين يقول بعطف التـوكيد أمثـالُ الزمخشرى والرازى والبيـضاوى وهم من أهل الذوق والبيان، فإن ذلك يقلل من أهمية القول بأن إجازة عطف التوكيد هو قول المفسرين والنحـاة على حد ما صرح به الشهاب: (والمؤكِّـد قد يعطف، كما صرح به المـفسرون والنحـاة، وتصريح أهل المعـانى بمنعه، لمـا بينهمـا من شدة الاتصال مخالف له بحسب الظاهر)[٣].

على أن جمهور النحاة لم يصرحـوا بجواز عطف المؤكَّد بالواو، وإنما صرحوا بجوازه إذا كان العاطف «ثم» كما قال ابن مـالك فى التسهيل: (وفصل الجملتين بثم إن أمن اللبس أجود من وصلهما)[٤].

وقال الشيخ مـحيى الدين عبد الحـميد فى عدة السالـك: (نص أبو حيان فى الارتشاف على أن حـرف العطف الذى يعطف الجملة المؤكِّدة على ما قـبلها هو «ثم»، ولكنه لم يصرح بأنه لا يجوز العطف بغير هذا الحرف)[٥].

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٩/ ١٧١.
(٢) تفسير البيضاوى ٨/ ١٢٨.
(٣) حاشية الشهاب ٨/ ٣٩٤.
(٤) تسهيل الفوائد ١٦٦.
(٥) عدة السالك إلى أوضح المسالك ٣/ ٣٣٦.

أما الرضى فقد أجازه فى ثم والفاء، وإن جردهما من حقيقة التعقيب والتراخى حين يعطفان الجملة المكررة. وعبارته: (وقد تكون ثم والفاء أيضًا لمجرد التدرج فى الارتقاء، وإن لم يكن الثانى مترتبًا فى الذكر على الأول، وذلك إذا تكرر الأول بلفظه، نحو: بالله وتالله ووالله ثم والله. وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ** ﴾. وقال تعالى: ﴿ **كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ** ﴾[1].

والغريب أن المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدى يجعل ترك العطف بين التوكيد والمؤكد هو رأى النحاة، وأن البلاغيين تابعوهم فى ذلك، وليس وراء الفصل فى كمال الاتصال أغراض بلاغية، وإنما هى قوانين النحاة. يقول رحمه الله: (ومثل هذا الفصل لما يسمونه كمال الاتصال، وهو أن تكون الجملة الثانية تأكيدًا للأولى، أو بدلاً منها، أو عطف بيان لها، فترك العطف فى هذا لا يرجع إلى مقام يقتضيه، وإنما يرجع إلى امتناع العطف فى النحو بين التأكيد والمؤكَّد، والبدل والمبدل منه، والبيان والمبيَّن، لأن العطف يقتضى التغاير بين المعطوف والتأكيد عين المؤكَّد)[2].

وهذا عكس ما صرح به الشهاب فيما نقلناه عنه من أن إجازة عطف التوكيد رأى النحاة، وأهل المعانى يمنعونه، كما أنه يناقض ما ذكرناه من أقوال النحاة.

والظاهر من كلام البلاغيين أنهم يمنعون العطف ما لم يكن فى المعطوف زيادة يغاير بها معنى ما عطف عليه، وإلا كان من عطف الشىء على نفسه، كما أثبتوه فى حديثهم عن كمال الاتصال، يستوى فى ذلك أن يكون العاطف ثم أو غيرها من حروف العطف، لأن المدار على ما يتضمنه المعطوف من زيادة فى المعنى. وهذا ما يفهم من كلام العصام فى قوله تعالى: ﴿ **كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ** ﴾ [التكاثر: ٣ - ٤]. قال: (ولما استشعر أن يستبعد كون الكلام تكريرًا، لأن العاطف يستدعى كون المراد بالثانى غير الأول، قال لدفعه: (وفى

(١) شرح الكافية ٢/ ٣٦٧.
(٢) البلاغة العالية ١٠٦.

«ثم» دلالة على أن الإنذار الثانى أبلغ من الأول، يعنى أن «ثم» مستعار من التراخى الزمانى إلى التدرج فى درج الارتقاء من غير اعتبار التراخى والبعد بين تلك الدرج. فإن قلت: إذا كان الإنذار الثانى أبلغ لم يكن تكريراً، قلت: كونه أبلغ باعتبار زيادة اهتمام المنذَر به، لا بأنه زاد فى المفهوم شيئًا)[1].

لقد أطلت الحديث فى تحقيق آراء النحاة والبلاغيين، لأن مثل هذا العطف إذا لم يكن له غرض سوى التوكيد يصبح دخول العاطف فيه ضربًا من الزيادة العارية عن الفائدة، وهو فوق مصادمته لقوانين أهل الفن، لا ينبغى القول بمثله فى الكتاب العزيز.

وإذا كان هذا العطف ثابتًا فى الذكر الحكيم، وخاصة فى عطف الجمل المكررة، وبحروف العطف الثلاثة: الواو والفاء وثم، فإن الجهود يجب أن توجه إلى البحث عن أسراره. وما أضافه دخول العاطف فيما كان الظاهر عدم دخوله، وقد حاولت استجلاء أسرار العطف بالواو فى كتاب لى تحت عنوان «الإعجاز فى نسق القرآن».

ويهمنى هنا الكشف عن بلاغة العطف بحرف المهلة، وهو الأثير فى الدخول بين الجمل المكررة، حتى جعله البعض خاصّاً بها دون سواه من حروف العطف، وهو الذى كثر وقوعه فى الذكر الحكيم.

وإذا كانت الفاء قد جاءت عاطفة للجملة المكررة كذلك، فإن الفرق بين العطفين يرجع إلى خصائص الحرفين التى تصاحبهما عند استعارتهما، من الترتيب والتعقيب فى الفاء، أو الترتيب والتراخى فى «ثم» ذلك أن الحرف عند استعارته لا تنمحى دلالاته الوضعية تمامًا، بل يبقى منها ما ينم عليها ويذكّر بخصائصها على ما قرره بدقة بالغة أبو البقاء الكفوى حين قال: (كل حرف كان له معنى متبادر، كالاستعلاء فى «على» مثلاً، ثم استعمل فى غيره، فإنه لا يترك ذلك المعنى المتبادر بالكلية، بل يبقى فيه رائحة منه، ويلاحظ معه)[2].

(١) الأطول ٢/ ٤٤.

(٢) الكليات ٥/ ١٤٨.

ويبدو هذا الفرق حين نقارن بين قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ [القمر: ٩]. وبين قوله عز وجل: ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣ - ٤]. قال الزمخشرى فى بيان سر العطف بالفاء: (كذبوه تكذيبًا عقب تكذيب، كلما مضى منهم قرن مكذّب تبعه قرن مكذب)[١]، فأشاع معنى التعقيب فى هذا العطف، الدلالة على تتابع التكذيب واستمراره على مدى قرون وأجيال، مما يبرز الإصرار والعناد، وعدم جدوى الدعوة معهم، تمهيدًا لأخذهم بجرمهم، وإنزال العذاب عليهم.

وفى الآية الثانية يقول صاحب الكشاف: (و «ثم» للدلالة على أن الإنذار الثانى أبلغ من الأول وأشد، كما تقول للمنصوح: أقول لك، ثم أقول لك: لا تفعل)[٢] فتجاوز الزمخشرى القول بالتأكيد -وهو الذى يمكن أن يؤدى بغير عاطف- إلى استلهام معنى الحرف، واستعارة التراخى الزمانى للتراخى فى الرتبة، ليكون الإنذار الثانى أشد وأبلغ، فكشف بذلك عن نكتتين، إحداهما: المغايرة بين المتعاطفين لتفاوتهما فى الشدة، وثانيتهما: إيثار حرف المهلة على غيره من حروف العطف، لأنه وحده هو الذى يمايز بين التهديدين، ويباعد التفاوت بينهما بقدر ما فيه من اتساع الزمن وبعده.

وقد كشف السبكى عن السر فى كون الإنذار الثانى أبلغ من الأول، فى قوله: (وسره أن فيه تنبيها على أن ذلك تكرر مرة بعد أخرى، وإن تراخى الزمن بينهما، ومن شأن ذلك أنه لا يكون إلا فى شىء لا يقبل أن يتطرق إليه تغيير، بل هو مستمر على تراخى الزمان)[٣].

فقوله: «وإن تراخى الزمن بينهما» هو الخيط الدقيق الفاصل بين الفاء وثم. وإن كانا معًا يستعاران للدلالة على التفاوت فى المنازل، وبه اختص حرف المهلة فى صورته المجازية بالإيماء إلى ثبات الموقف، وحسم الأطماع على حد تعبير ابن قتيبة.

(١) الكشاف ٤/ ٣٧.
(٢) السابق ٤/ ٢٨١.
(٣) عروس الأفراح ٣/ ٢٢٩.

هذا الحسم للأطماع وقطع الأوهام فى تغيير المواقف بتغيُّر الزمن، هو الذى من أجله آثر عليه السلام حرف المهلة فى قوله ردًّا على بنى هشام بن المغيرة حين استأذنوه فى أن يُنكحوا ابنتهم عليا: (فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن إلا أن يطلق عليٌّ ابنتى وينكح ابنتهم) فقطعت «ثم» بهذا العطف كل أمل يراودهم فى أن يغير الرسول موقفه بمرور الزمن، وكأنه يقول: لا آذن الآن، ولا آذن غدا، ولا آذن ما حييت. وذلك شيء فوق التأكيد الذى رآه ابن الأثير (أشد موقعًا من الإيجاز لانصباب الغاية إلى تأكيد القول، فى منع على رضى الله عنه من التزويج بابنة أبى جهل بن هشام)[1] لأن هذا التأكيد يفهم بغير دخول العاطف، وهو لا يدل على ما دلت عليه. «ثم» من ثبات الرسول على موقفه مهما تغيرت الظروف وتباعدت الأحوال.

ويشير ابن يعقوب إلى الحركة النفسية المصاحبة للتراخى، وأثر الوقت فى إحماء الشعور، وتقوية العزم على تطوير الفعل والمبالغة فيه: فقال فى تفسير أبلغية الإنذار الثانى، وكونه أوكد من الأول: (وفى العطف بثم دلالة على أن الإنذار الثانى الذى اعتبره المتكلم أوكد، وهو فى رعايته وقصده أبلغ، كما يقول القائل: أقول لك: لا تفعل، ثم تتقوى قريحته على النهى بأبلغ من الأول، فيقول: ثم أقول لك لا تفعل. وبيان ذلك أن أصل «ثم» إفادة التراخى والبعد الزمانى، وقد استعير للتراخى والبعد المعنوى)[2].

وكأن ابن يعقوب يستمد من المعنى الحقيقى لحرف التراخى ما يشيع هذا الأثر النفسى عند المتكلم، ويحفزه على تطوير أسلحته فى التهديد، ومهاجمة الخصم بما هو أشد وأعتى من الأول.

ولعل ذلك ليس بعيدًا مما قاله أبو حيان فى قوله تعالى دعاء على الوليد بن المغيرة ﴿**إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ**﴾ [المدثر: ١٨- ٢٠]. قال: (وجاء التكرار بثم ليدل على أن الثانية أبلغ من الأولى، للتراخى الذى

(١) المثل السائر ٣/ ١٠

(٢) مواهب الفتاح ٣/ ٢١٩.

بينهما، كأنه دعا عليه أولاً، ورجا أن يقلع عما كان يروقه فلم يفعل، فدعا عليه ثانيا)[1].

الفرق بينهما أن أبا حيان يبقى الحرف على حقيقته، ويستدل بالتراخى الزمانى على أن الدعاء الثانى أبلغ من الأول، لأنه دعاء اليائس، الذى فقد كل أمل فى أن يفىء المدعُوُّ عليه إلى رشده، فتمنى له أشد أنواع الهلاك، جزاء تماديه.

أبو حيان يربط التفاوت بحالى الداعى والمدعو عليه، ويخلل الزمن بين الدعاءين ليشيع روح اليأس. ويضاعف من الرغبة فى الانتقام. أما البيانيون فإن نظرتهم تنصب على التفاوت بين الدعاءين، ويستعيرون له دلالة البعد فى حرف المهلة، لتنفخ فى روح الجملة المكررة معنى جديدًا يتصاعد به التهديد والتعجيب من حال المدعو عليه، كما تجده فى قول الشهاب: (الجملة الثانية أبلغ فى التعجب من الأولى، للعطف بثم الدالة على تفاوت الرتبة، فكأنه قيل: قتل بنوع ما من القتل، لا بل قتل بأشده وأشده، ولذا ساغ العطف فيه مع أنه تأكيد)[2] ذلك التفاوت المعنوى، والارتقاء فى الدعاء، هو الذى سوغ العطف فى نظر أهل المعانى.

مثل هذا التكرار فى الدعاء، ولكن للإغاظة وزيادة المناكدة ورد فى قول الحماسى:

ومالى من ذنب إليهم علمته ... سوى أننى قد قلت يا سرحة اسلمى

نعم فاسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى ... ثلاث تحيات وإن لم تكلمى

فهو يرد على من أنذره بسفك دمه، لأنه دعا لسرحة التى كنى بها عن امرأة فيهم، فكرر الدعاء لها بالسلامة ليغايظهم ويناكدهم[3]، وقد ارتقى فى هذا الدعاء، وازداد فى مناكدتهم مبتدئًا بالفاء، الدالة على التفاوت، وترقى منها إلى «ثم» الدالة على شدة التفاوت، وانتهى بزيادة التاء على «ثم» إمعانًا فى المبالغة

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٧٤.
(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٢٧٥.
(٣) ينظر شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٣/ ١٣٧٤.

وشدة المغايظة، وكـأنه يقول لهم: لن يخيفنى تهديدكم، وسـأظل أدعو لها إلى آخر يوم فى حياتى، فلا تنتظروا منى تراجعًا، ولن يغير الزمن من موقفى.

ولأن «ثم» تكسب عـطف الجـملة المكررة زيـادة تغليظ وتشـديد فـى مـقـام التهديد، فقد يصاحـبها من الزيادة فى التعبير ما يؤكد هذه المبالغـة وينمِّيها، كما فى قوله تعالى: ﴿**لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**﴾ [التكاثر: ٦ - ٧]. فإن عطف الرؤية بحرف المهلة يومئ إلى أن الرؤية الثـانية أشد هولا، حتى لكأن مـا روأه من الجحـيم أولاً غيـر مـا رأوه ثانيًا فى فظـاعتـه وهوله، وذلك لما هو معروف فى دنيـا الناس من أن الذى عذب بشىء فظيع ينتابه من الهيـاج وانهيار الأعصـاب ما ينتـابه إذا ما ذكّـر به، فـكيف برؤيته ثانيًـا، فهـو لا يُقبل عليه إلا سوقًا، وهذا ما يحدث لمن يرى هول عذاب الجحيم، فإن إراءته إياه ثانية أشد وأفظع، وقـد ازداد هذا التهويل بـقوله «عين اليقـين» لأن فيه قطعًـا لكل وهم، ودفعًا لأى تجوز يمكن أن يفهم من الرؤية.

وانظر كيف يقـابل الله تعالى الغلو فى التكذيب والمكابرة بالمبالغـة فى التهديد والوعيد، فى قوله تعالى وصفًا للمشركين: ﴿**فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ (٣١) وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ**﴾ [القيامة: ٣١ - ٣٥].

فلم يكتف المشـرك بالتكذيب والإعـراض، حـتى تفاخـر به وتعـاظم بين قومه، فكان ذلك عند الله تعالى أشد من تكذيبه وإعراضه، بدليل عطفه بثم الدالة على التـفاوت بين التكذيـب والإعراض، وبين ذهابه إلى أهله يتـمطى كـبرًا واخـتيـالاً، فقـابل الله تعالى ذلك بتكـرير التهـديد بالويل «أولى لك فـأولى. ثم أولى لك فأولـى» وعطف الثانى على الأول بـثم، وكأنه يقـسم ألوان العـذاب على أفـعـال الكافـر، فـيـقـول له: ويل لك عـلى تكذيبك وإعـراضك، وويل أشـد وأعظـم على تبـاهيك واخـتـيـالـك بهـذا الكفـر والإعراض، وفى ذلك تنبـيه على أن المجاهرة بالذنب مـعصية أخـرى، أشد

وأعظم من المعصية نفسها، لما لها من أثر على سلوك الناس، وتشجيعهم على المعاصى وإفشائها.

ولعل هذا ليس بعيدًا من التهويل بالتكرير فى قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ**﴾ [الانفطار: ١٤ - ١٩]..

فالتعبير عن الكفار بالفجار فيه دلالة على التناهى فى الكفر والإغراق فيه، لأن الفَجْر: شق الشىء شقا واسعًا[1]. فهو كفر مشفع بالتحدى والمجاهرة وشقّ ستر الديانة[2] فقابل الله هذا الفجور واللجاجة فى الكفر بزيادة التهويل من يوم القيامة، وما يصحبه من أهوال تشيب لها الولدان، مؤثرًا العطف بثم ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ**﴾.

وفى مجال الامتداح بالأعمال الصالحات والترغيب فيها تُكسب «ثم» الجملة المكررة معنى الثبات والدوام، وتومئ إلى أن الفضل كل الفضل فى المداومة، حتى لكأن الإيمان والتقوى لا قيمة لهما ما لم يتسما بالاستمرار والدوام، وذلك قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [المائدة: ٩٤].

إنها مراحل من التدرج والارتقاء فى معارج القبول، بدأت بالخوف من الله والإيمان به والعمل الصالح، ثم ترقت إلى الرضا واليقين، اللذين أشاعا فى النفس الأريحية الباعثة على مداومة ما اطمأنت إليه، وانتهت بالوصول إلى درجة الإحسان التى ترقى بصاحبها إلى مرحلة المشاهدة واليقين، حتى يعبد الإنسان ربه

(١) المفردات فى غريب القرآن ٣٧٣.
(٢) السابق ٣٧٣.

عبادة من يراه ويشاهده. هذا ما أفاض به الطيبى فيما نقله الشهاب: (والمعنى: أنه ليس المطلوب من المؤمنين الزهادة عن المستلذات وتحريم الطيبات، وإنما المطلوب منهم الترقى فى مدارج التقوى والإيمان إلى مراتب الإخلاص واليقين، ومعارج القدس والكمال، وذلك بأن يثبتوا على الاتّقاء عن الشرك، وعلى الإيمان بما يجب الإيمان به، وعلى الأعمال الصالحة لتحصيل الاستقامة التامة، التى يمكن بها الترقى إلى مرتبة المشاهدة، ومعارج أن تعبد الله كأنك تراه، وهو المعنىّ بقوله «وأحسنوا»)[1].

(١) حاشية الشهاب ٣/ ٢٨٠.

obeikan.com

التراخى بين الحقيقة والمجاز

كثيـرًا ما تختلف نظـرات المفسـرين إلى معنى التراخى فى حرف المهلة، طبقًا لما يشيعـه البعد بضربيه الحسى والمعـنوى فى النص من دلالات، وما يُبرق به من أسرار، قد يراها أحدهم كامنة فى رداء الزمن، ويراها آخرون فيما يستعار له هذا الرداء من معانى التدرج والارتقاء.

ففى قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ٢٦٢] قال الزمخشـرى: (ومعنى «ثم» إظهار التفـاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وأن تركهـما خيـر من نفس الإنفاق)[1] فآثر الزمـخشرى المعـنى المجازى الدال على تعظيم المعطوف، لأنه رأى أن الغرض الأصيل من امـتداح الإنفاق فى هذه الآية وتعظيم أجر المنفق، هو الحث على تنقـيته من شوائب مـا يبطله ويذهب بأجره، من إيذاء الفقراء وأصـحاب الحاجات والمن عليهم، بدليل أن الآية قـد سُبقت بما يدل على تعظيـم الإنفـاق فى ذاتـه، وبيـان عظـيـم أجـره عند الله، وهو قوله: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٦١] وليس بعد هذه المضاعفة للأجر المنفَق، التى لم تقف عند حد المضاعفة إلى سبعمائة ضعف، بل أطلقت فى ذلك الوعد المصدر بلفظ الجلالة «والله يضاعف لمن يشاء» ليضفى الله على النفقة من جلاله ما يعظمهـا فى عين المؤمن، ثم شفعها بقوله: «والله واسع عليم» ليفيض عليها من سعة كرمـه ما لا يقف بثوابها عند عدّ أو حساب. ليس بعد هذا التعظيم لعمل المنفق، ومقابلته بهذا الفيض من الثواب، حاجة إلى زيادة حث أو إغراء، فكانت الآية التى تلتها -وهى موضع حديثنا- دعوة إلى إخلاص هذا الإنفاق مما يذهب بأجـره العظيم، وكأنّ ذكر الإنفاق فى سـبيل الله بين يدى

(١) الكشاف ١/ ٣٩٤.

دعوة المنفِق إلى ترك المن والأذى توطئة لهذا الغرض الأصيل، وهذا هو السر الذى جعل الزمخشرى يستعير فيه معنى التراخى لبعد المرتبة، وكأن الله يقول: أرأيت إلى هذا الإنفاق الذى يضاعف الله أجره هذه المضاعفة، لا قيمة له مالم يكن خالصًا من الرياء، نقيّاً من المن والإيذاء، بل هذه الصدقة التى عظَّمها الله تعالى ورفع شأنها تتضاءل وتتطامن حتى تصبح الكلمة الطيبة أعظم منها إذا ما صحبها منٌّ أو أذى ﴿**قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى**﴾ [البقرة:٢٦٣] وليست المفاضلة بين القول الطيب والصدقة المشفوعة بالأذى مفاضلة بين حسن وأحسن منه، ولكنها مفاضلة بين الطيب والخبيث.

ويعلل الشيخ الطاهر بن عاشور المفاضلة بين المتعاطفين فى تفسيره لكلام الزمخشرى بقوله: (لأن العطاء قد يصدر عن كرم النفس وحب المحمدة، فللنفوس حظ فيه، مع حظ المعطَى، بخلاف ترك المن والأذى، فلا حظَّ فيه لنفس المعطِى، فإن الأكثر يميلون إلى التبجح والتطاول على المعطَى، فالمهملة فى «ثم» مجازية. إذ شبه حصول الشىء المهم -فى عزة حصوله- بحصول الشىء المتأخر زمنه، وكأن الذى دعا الزمخشرى إلى هذا أنه رأى معنى المهلة هنا غير مراد، لأن المراد حصول الإنفاق وترك المن معا)[1].

هذا التعليل لتفاوت مرتبة المتعاطفين دقيق رائع، وكشفه عن دافع الزمخشرى إلى التجوز بما يبرز إيثار حرف المهلة على ما يبدو أنه موضع الواو دقيق أيضًا، لكننا نقف معه فى إجرائه للاستعارة، حيث يجريها فى مدخول الحرف كما هو واضح فى عبارته، وهو إن صح أن يكون رأيًا خاصّاً بابن عاشور، ولا أراه يصح عنده، لأنه كثيرًا ما أجراها فى معنى الحرف، فلا يصح بحال أن يفهم ذلك من كلام الكشاف، فإنه فى كل موضع فسر فيه استعارة المهلة كان كلامه صريحًا فى استعارة معنى الحرف، من مثل قوله: (وكلمة التراخى دلت على تباين المنزلتين دلالتها على تباين الوقتين)[2] فهو يستعير البعد فى الوقت لبعد المنزلة، كما هو بيِّن لائح.

(١) التحرير والتنوير ٣/ ٤٢.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٤٨.

ولابن المنير رأى طريف فى استعارة الحرف فى هذه الآية وما أشبهها، مما يدل المعطوف فيه على الدوام والثبات. ومجمله أن يستعار تراخى زمن وقوع الفعل الذى هو حقيقة «ثم» لتراخى زمن بقائه، فيدل بذلك على دوام المعطوف واستمراره. وإليك ما قال مما نسوقه بتمامه لطرافته: (وعندى فيها وجه آخر محتمل فى هذه الآية ونحوها، وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها، وإرخاء الطول فى استصحابه، فهى على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعد الزمن، ولكن معناها الأصلى تراخى زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعار إليه دوام وجود الفعل وتراخى زمن بقائه، وعليه حمل قوله تعالى: «ثم استقاموا»، أى داموا على الاستقامة دوامًا متراخيًا، ممتد الأمل، وتلك الاستقامة هى المعتبرة، لا ما هو منقطع إلى ضده من الحَيْد إلى الهوى والشهوات، وكذلك قوله: «ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى» أى يدومون على تناسى الإحسان، وعلى ترك الاعتداد به والامتنان، ليسوا بتاركيه فى أزمنة إلى الإذاية»[1].

لكن الإمام محمد عبده يحمل «ثُم» على حقيقتها فى الآية، ويستخرج من التراخى الزمانى نكتة العطف بهذا الحرف. يقول صاحب المنار: (وقال الأستاذ الإمام: قد يشكل على بعض الناس التعبير بثم التى تفيد التراخى، مع العلم بأن المن أو الأذى العاجل أضر وأجدر بأن يجعل تركه شرطًا لتحصيل الأجر.

وجوابه أن من يقرن النفقة بالمن والأذى، أو يتبعها أحدهما أو كليهما عاجلاً لا يستحق أن يدخل فى الذين ينفقون فى سبيل الله، أو يوصف بالسخاء المحمود عند ربه، وإذا كان من يمن أو يؤذى بعد الإنفاق بزمن لا يعتد الله بإنفاقه ولا يأجره عليه، ولا يقيه الخوف والحزن، أفلا يكون المتعجل به أجدر بذلك؟ بلى. وإنما الكلام فى السخى الذى ينفق فى سبيل الله مخلصًا، متحريًا للمصلحة والمنفعة، لا باغيًا جزاء من ينفق عليه، ولا مكافأة، ولكن قد يعرض له بعد ذلك ما يحمله على المن والأذى المُحبِطين للأجر، كأنه يرى ممن كان أنفق

(١) الإنصاف ١/ ٣٩٣.

عليه غمطا لحقه، أو إعراضا عنه، وتركا لما كان من احترامه إياه، فيثير بذلك غضبه حتى يمن أو يؤذى)[1].

وجه البلاغة فى العطف بهذا الحرف على ما ذهب إليه الشيخ الإمام هو المبالغة فى امتداح هؤلاء المنفقين، الذين لا يستطيع الزمن مهما تراخى بهم أن يحبط عملهم، ولا أن يدفعهم تبدل أحوال المنفَق عليهم إلى فعل ما يذهب بأجر النفقة ويبطلها. وكأن ترك المن والأذى بعد تقادم العهد بالنفقة شرط لاستحقاق هذا الأجر العظيم. وهذا هو سر العدول عن الواو أو الفاء، إذ لو قيل ولا يتبعون، أو فلا يتبعون لما دل ذلك على كمال المدح، لأن طول الزمن أقدر على التغيير فى النفوس. وأدل على اختبار صدق النوايا.

هذا كلام فى ميزان البلاغة ثقيل الوزن. لكنه ليس بجديد، بل هو من بحار الكشاف يغترف. وإذا شئت العثور عليه، فأنت واجده فى أحد وجهين ذكرهما الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ [الحجرات: ١٥] قال الزمخشرى: (فإن قلت: ما معنى «ثم» ههنا وهى للتراخى، وعدمُ الارتياب يجب أن يكون مقارنا للإيمان، لأنه وصف فيه، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة، التى حقيقتها التيقن وانتفاء الريب؟ قلت: الجواب على طريقين: أحدهما أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان أو بعض المضللين بعد ثلج الصدر، فشككه وقذف فى قلبه ما يثلم يقينه، أو نظر هو نظرًا غير سديد يسقط به على الشك، ثم يستمر على ذلك راكبًا رأسه، لا يطلب له مخرجًا، فوصف المؤمنون حقا بالبعد عن هذه الموبقات، ونظيره قوله «ثم استقاموا». والثانى أن الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان، تنبيهًا على مكانه، وعطف على الإيمان بكلمة التراخى إشعارًا باستقراره فى الأزمنة المتراخية المتطاولة غضّاً جديدًا)[2].

(١) تفسير المنار ٣/ ٥٢.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٧١.

رحم الله الزمخشرى لم يترك لمن بعده ما يتفاخرون بافتراعه. ففى الوجه الأول يذهب إلى التراخى الزمانى فى «ثم»، ليدل على أن مرور الزمن لا يزيد المؤمنين الصادقين إلا ثباتًا ويقينًا، ولن يتسرب إلى قلوبهم ما يتسرب إلى قلوب ضعاف الإيمان من الشك والارتياب. إنه نفس الوجه الذى ذكره الأستاذ الإمام فى آية البقرة.

والوجه الثانى يذهب إلى أنه من عطف الخاص على العام، تنبيهًا على أن عدم الريب هو قمة الإيمان ودليل رسوخه. وذلك هو سر العطف. أما عطفه بثم فهو للإشعار باستقراره فى الأزمنة المتراخية، وذلك عين ما قال به صاحب الإنصاف، وجعله ضربًا من المجاز، باستعارة تراخى زمن المعطوف لتراخى زمن بقائه، كما نقلناه عنه فى آية البقرة، لأن حقيقة التراخى فيها أن تكون المهلة بين المتعاطفين، لا بعد وقوع المعطوف. وإذا كان الزمخشرى لم يصرح بهذه الاستعارة، فإن عبارته لا تمنعه. غير أن كلامه فى غير هذا الموطن يجعل التجوز بالثبات والدوام فى الفعل، ويبقى ثم على استعارتها لتباين المنزلتين، فيكون فيه ضربان من المجاز: أحدهما فى الحرف، والثانى فى الفعل. كما فى قوله تعالى: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ**﴾ [طه: ٨٢]. ففسر الاهتداء بالثبات على التوبة والإيمان، لأنه ليس شيئًا غيرهما. وفسر التراخى فى «ثم» بالتباين بين منزلة الفعل والاستقامة عليه. قال الزمخشرى: (الاهتداء هو الاستقامة والثبات على الهدى المذكور، وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح. ونحوه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ [فصلت: ٣٠]، وكلمة التراخى دلت على تباين المنزلتين دلالتها على تباين الوقتين فى «جاءنى زيد ثم عمرو» أعنى أن منزلة الاستقامة على الخير مباينة لمنزلة الخير نفسه، لأنها أعلى منها وأفضل»[1].

فتفسيره للاهتداء بالثبات على الهدى تجوز فى الفعل، وبمثله قال فى الآية الكريمة: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الفاتحة: ٦] ففسر طلب الهداية من قوم

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٤.

مهـتدين بطلب الزيادة أو التثـبيت[1]، وعلق السيـد الشريف على عـبارته هناك بقوله: (فإن حمل الهدى على التثبيت مجاز)[2].

وقرينة التجـوز هنا عطف الاهتداء على ما يستلزمـه من التوبة والإيمان، لأن من تاب وآمن وعمل صـالحًا لا يكون غير مهـتد، فحمل الاهتـداء على الثبات لتحـقيق المغايرة بين المتعـاطفين، فراراً من عطف الشيء على نفـسه، وتلك هى نكتة التجوز فى الفعل، ولا يختلف الأمر لو عطف الفعل بالواو.

أما إيثار حرف التراخى على الواو، فنكتته الدلالة على فضل المعطوف، تنبيهًا على أن الثبـات على الفعل خـير من الفـعل نفسه، فـاستـعير التـراخى الزمنى للتراخى فى الرتبة.

وهنا يتضح الفرق بين الزمخشرى وابن المنير، حيث يجعل الأول الدلالة على الثبات من أثر التجوز فى الفعل، ويجعلها الأخير من وحى التجوز فى الحرف.

يؤكد ذلك ما قاله الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا**﴾ [فصلت: ٣٠]: («ثم» لتراخى الاستقامة عن الإقرار فى المرتبة، وفضلها عليه، لأن الاستـقامة لها الشأن كله، ونحوه: قوله تعـالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا**﴾ [الحجـرات: ١٥]. والمعنى: ثم ثبتـوا على الإقرار ومقتـضياته)[3] فقـوله: «ثم لتراخى الاستقـامة عن الإقرار فى المرتبـة» صريح فى استعـارتها للتراخى الرتبى. وقوله «المعنى: ثـم ثبتوا على الإقرار» مفسراً الاستقامة بالثبات صريح فى التجوز فى الفعل.

- **قرينة المجاز بين المنع والجواز:**

من الثـابت لدى علماء البـيان أن المجـاز اللغوى ملزوم قـرينة معـاندة لإرادة الحقيـقة[4]، لكننا كثيـراً ما لا نجد قرينة ظاهرة تمنع من إرادة الحـقيقة فيـما قيل باستعارة «ثم» للاستبعاد أو التراخى الرتبى، وهذا ما جعل المفسرين يختلفون فى

(١) الكشاف ١/ ٦٧.
(٢) حاشية السيد على الكشاف ١/ ٦٧.
(٣) الكشاف ٣/ ٤٥٣.
(٤) المطول ٤٠٧.

إرادة الحقيقة أو المجاز فى كثير من النصوص. فيحملها بعضهم على الحقيقة، وآخرون على المجاز، بل إن الواحد منهم ربما قال باحتمال الحقيقة والمجاز فى الموضع الواحد، كما رأينا فى الأمثلة التى مرت آنفا.

ومن الأمثلة التى خفيت فيها القرينة المانعة من إرادة الحقيقة، قوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢].

فقد عطف إيحاء الله إلى رسوله باتباع ملة إبراهيم بحرف التراخى، والمهلةُ بين ما حكاه الله عن إبراهيم والإيحاء إلى رسوله باتباع ملته قائمة، ولا مانع من إرادتها. لكن الزمخشرى حملها على التراخى فى الرتبة. فقال: (فى «ثم» هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ، وإجلال محله، والإيذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم من الكرامة، وأجلّ ما أولى من النعمة اتباع رسول الله ﷺ، من قِبَل أنها دلت على تباعد هذا النعت فى المرتبة من بين سائر النعوت التى أثنى الله عليه بها)[1].

وكأنى بالزمخشرى -رحمه الله- نظر إلى أن ما حكاه الله تعالى عن إبراهيم جزء من الوحى، إذ لا سبيل لمعرفة الرسول به إلا منه، فليس بين ما أوحى إليه من قصة إبراهيم، وما أوحى إليه باتباع ملته تراخ، ولو مضى الأمر فى القصّ على حقيقته لكان ذلك موضع الواو، وكان الظاهر أن يقال: وأوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم، فلجأ الزمخشرى إلى المجاز، ليكشف عن سر إيثار حرف التراخى على ما ظاهره أنه موضع الواو، ورأى أن هذا الإيحاء باتباع ملة إبراهيم نعمة أخرى امتن الله بها على خليل الله، وغوير بينها وبين ما قبلها فى حرف العطف، إظهارًا للتفاوت بينها وبين ما سبقها من النعم، تعظيمًا للنبى الكريم

(١) الكشاف ٢/ ٤٣٤.

الذى كان اتباعه خير ما أنعم الله به على إبراهيم، واستتبع ذلك تعظيم إبراهيم عليه السلام، لأن خير النبيين تابع لملته. كما أشار إلى ذلك عمر الفارسى فى شرحه لعبارة الكشاف: (أراد أن فيه تعظيمًا لا يكتنه كنهه، أما الإيذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله صلوات الله عليه، فمن دلالة «ثم» على تباين هذا المؤْتَى، وسائر ما أوتى من الرتب والمآثر، وأما تعظيم رسول الله ﷺ، فمن حيث إن الخليل مع جلالة محله عند الله تعالى أجلُّ رتبته أن أوصى إلى حبيب الله تعالى باتباع ملته. وفى لفظ «أوحينا» ثم الأمر باتباع الملة، لا اتباع إبراهيم ما يدل على أنه ليس بتابع، بل هو مستقل بالأخذ عمن أخذ إبراهيم عنه)[1].

فالقرينة التى تدفع إلى التجوز فى حرف المهلة قارة فى أغراض النظم، وقدرةِ المجاز على استيعاب أسراره بما لا تستطيعه الحقيقة، وطريق التعرف على المجاز إمكان وقوع ما لا يدل على المهلة من حروف العطف موقعها، فإذا أمكن وقوع الواو مثلاً موقع ثم، كان إيثارها دليلاً على التجوز بالتراخى الحقيقى عن التراخى الرتبى. وإلا فإن حملها على الحقيقة فيما لا مهلة فيه، يلغى معنى التراخى فيها، وهو الذى يميزها عن سائر حروف العطف، وإلغاء خصائص الحروف مما تجل عنه لغة القرآن.

فالمهلة خصوصية زائدة على مطلق الجمع، وعلى الترتيب الذى تشارك الفاء فيه ثم، ومعلوم أنه ما من أمر زائد على مجرد الإثبات والنفى إلا كان هو الغرض من إثباته أو نفيه، كما قرر الإمام عبد القاهر. ففى قولك: جاء زيد ثم عمرو، يكون الغرض إثبات مجىء زيد بعد عمرو بمهلة، فإذا قلت: ما جاء زيد ثم عمرو، كنت تنفى هذه المهلة فحسب، ولا مانع أن يكون زيد وعمرو قد جاءا معا، أو جاء عمرو عقبه بلا مهلة.

وإرادة هذه الخصوصية أو عدم إرادتها هى القرينة على المجاز أو إرادة الحقيقة، والمثال الظاهر على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِى الأَرْضِ**

(١) كشف الكشاف ٤/ ١٢٦٢.

مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [النساء: ١٠٠].

فماذا لو أجريت «ثم» على حقيقتها فى قوله «ثم يدركه الموت»؟ سيكون المعنى حينئذ أن هذا الأجر يثبت لمن أدركه الموت بعد خروجه من بيته مهاجراً بمهلة، ولا أجر لمن خرج مخلصًا نيته للهجرة فأدركه الموت عقب خروجه، وهو بالقطع غير مراد، لأن الآية فى سياق يعظم إخلاص النية فى الخروج للهجرة، ويطمئن من خرج متجردًا للهجرة محتسبًا لها وحالت العوائق دون إتمامها، فمات قبل بلوغ مهجره أن الله يضمن له أجر المهاجرين. لا ينقص منه شيئًا، وسواء فى ذلك أن يدركه الموت عقب خروجه أو بعد زمن، لأن النية المقرونة بالخروج هى مدار الجزاء، ولأنه فيهما معًا لم يصل إلى دار الهجرة، والدليل على ذلك أن الآية نزلت فى حبيب بن ضمرة الليثى حمله بنوه على سرير متوجهًا إلى المدينة، فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت، فصفق بيمينه على شماله، فقال: اللهم هذه لك، وهذه لرسولك، أبايعك على ما بايعتك يد رسول الله ﷺ ومات حميدًا، فبلغ خبره أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: لو وافى المدينة لكان أتم أجرًا، فأنزل الله تعالى هذه الآية[١].

وهو قاطع فى أن ثبوت الأجر غير مقيد بحصول المهلة بعد الخروج، فما التنعيم الذى مات به حبيب ببعيد عن مكة حتى يستحق المهلة، وإنما هو التراخى المجازى الدال على تعظيم الموت فى سبيل الله، وبعد منزلته من منزلة الخروج، لتجتمع فى الآية مبالغتان، هذا التراخى الرتبى، والتعبير بقوله: «يدركه الموت» بدلاً من «يمت» كما نبه إلى ذلك الألوسى فى قوله: (ووضع «يدركه الموت» موضع «يمت»، إشعارًا بمزيد الرضا من الله تعالى، وأن الموت كالهدية منه سبحانه له، لأنه سبب الوصول إلى النعيم المقيم، الذى لا ينال إلا بالموت، وجىء بثم بدل الواو تتميمًا لهذه الدقيقة، وأن مرتبة الخروج دون هذه المرتبة»[٢].

(١) أسباب النزول للواحدى ١٣٢.

(٢) روح المعانى ٥/ ١٢٨.

فالعـدول عن الواو إلى ثم قـرينة على إرادة التراخى الرتبى الذى تخـتص به «ثم» حيث لم يكن إلى قصد المهلة من غرض.

وأكثر من ذلك وضوحًا على عدم إرادة الحقيـقة لتنافى خصوصية حرف المهلة مع الغرض قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**﴾ [النساء: ١١٢]. فـقد جـمع المخطئ بين أمرين: الإثم والرمـى، وجمع الله فى جزائه بين البـهتان والإثم، والبهتـان مقابل للرمى، وهو فى الجـزاء مقدم، وفى الشرط مؤخـر معطوف بثم، فدل العطف بالواو فى الجزاء، وتقـديم ما أخر فى الشرط على أن التراخى الزمنى غير مراد، هذا فضلاً عن أن الغرض يتعارض مع حقيـقة المهلة، إذ لو أريدت لكان الجزاء مشروطًا بوقـوع الرمى بعد الإثم بمهلة، ومفـهومـه أنه لو جمع بين الإثـم والرمى، ولم يكن الثانى بعـد الأول بمهلة لما استحق هذا العقاب، وذلك ظاهر الفساد. لذلك قال الشهاب: (وفى «ثم» دلالة على بعد مرتبة البهتان من ارتكاب الإثم نفسه)[1].

وفى هذا البـعـد المجـازى إشارة إلى عـظم الجرم فى رمـى الأبرياء، وتلطيخ سمعتهم وشرفهم، فكل إثم يقترفه الآثم هو دون الرمى فى فظاعته وقبحه.

وكثيـرًا ما يكون الفاصل الزمنى المعبـر عنه بالمهلة مفسدًا للمـعنى، فلا يكون هناك بد من القول بالتراخى الرتبى، كـما فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [الحج: ٥٢].

فإن التراخى الحقيقى بين إزالة ما ألقى الشيطان وإحكام الله الآيات، يوهم أن وساوس الشيطان قد ظلت ملتبسة بهذه الآيات زمنا قبل أن يُحكم الله آياته، وهو مـعنى فاسـد، بدليل الفاء فى قـوله «فيـنسخ الله» الدالة على سرعـة إزالة تلك

(١) حاشية الشهاب ٣/ ١٧٦.

الأوهام من رءوس ضعاف الإيمان قبل أن تعلق بآياته، صيانة لكلامه من أن يلتبس فيه الحق بالباطل ولو لزمن يسير، وهو عين الوقت الذى يحكم الله فيه الآيات، إلا أن إزالة الأوهام دون الإحكام فى المرتبة، من حيث إن إحكام الآيات هو الهدف، ومن أجله كان نسخ ما ألقى الشيطان.

ولعل الفاء فى «فينسخ» بما فيها من معنى المسارعة خير دليل على وهن قصة الغرانيق، لأن دعوى أن الرسول نطق بعد قوله: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ**﴾ [النجم: ١٩] بقوله «تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى» وسماع الناس إياها، واستفاضتها على ألسنتهم، مما سيناقض معنى الفاء التى تدل على أن النسخ يعقب إلقاء الشيطان، فلا يتمكن من لَبْس كتاب الله المحكم بما يبثه من أوهام وأباطيل. وقد أحسن ابن كثير حين قال: (وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظنّاً منهم أن مشركى قريش قد أسلموا، ولكنها طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح)[1].

المهم أن المهلة بين النسخ وإحكام الآيات ليست مرادة، بل إنها تؤدى إلى معنى غير صحيح. وهذا هو قرينة التجوز فى حرف المهلة.

وقد يكون المقام مما يأبى التراخى الزمانى، كما تجده فى مواطن التعذيب والتهديد به، فإن المهلة بين مراحل العذاب تدل على أن هناك فترات تتخلل هذه المراحل، ينقطع فيها التعذيب، وهو ما يأباه مقام التشديد فى الوعيد. ومثاله قوله تعالى: ﴿**خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ**﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٣].

فلو قلنا بالتراخى الحقيقى لكانت هناك مهلة بين الغلّ والتصلية، وبينها وبين السلك، والمقامُ مقام غضب وانتقام، لا يلائمه ما توهمه المهلة الحقيقية من

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٢٩.

انقطاع العذاب، وتخلل الزمن بين كل لون من العذاب وآخر، فلم يكن مفرّ من القول بالتراخى الرتبى، وبه يتصاعد العذاب، وينتقل المعذَّب من طور إلى طور أشد وأقسى، وهو ما تومىء به ثم من التفاوت فى الشدة، على ما قال البيضاوى وعلق عليه الشهاب بقوله: (ولم يجعلها للمهلة، إذ مقام التهديد لا يناسبه)[1].

إلا أن المهم فى الحديث عن القرينة هو ما تجاذبته الحقيقة والمجاز من المواضع، وليس فيها ما يمنع من إرادة الحقيقة، ومن ثم كانت عرضة لاختلاف الأذواق ففى قوله تعالى: ﴿**وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الجاثية: ٧، ٨] تجاذب حرفَ المهلة فى قوله: «ثم يصر مستكبرًا» الحقيقةُ والمجاز، وليس فى النص قرينة تقطع بالمجاز وتمنع من إرادة حقيقة التراخى، وهو ما صرح به الشهاب فيما علق به على عبارة البيضاوى: (وثم لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات كقوله:

يرى غمرات الموت ثم يزورها[2]

قال الشهاب: (فهى للتراخى الرتبى لا الحقيقى كما فى البيت المذكور، واختاروه، لأنه أبلغ وأنسب بالمقام، وإن أمكن إبقاؤه على حقيقته هنا)[3].

مكمن الخطر فى هذا القول هو التصريح بإمكان الحقيقة مع التجوز باستعارة الحرف، لأنه يضعنا أمام ضرب من المجاز اللغوى لا تمنع فيه القرينة من إرادة الحقيقة، ويخضع فيه القول بالحقيقة أو المجاز للأذواق، لا لحسم القرائن. وبمثل ذلك قال الألوسى: (فإن «ثم» لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات، وهى للتراخى الرتبى، ويمكن إبقاؤه على حقيقته، إلا أن الأول أبلغ وأنسب بالمقام)[4].

مبنى الحكم بأبلغية التراخى الرتبى على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأما كونه أنسب بالمقام، فلعله راجع إلى أن مقام التسجيل على الكفار وإبراز عتوهم

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢٣٩.
(٢) تفسير البيضاوى ٨/ ١٧.
(٣) حاشية الشهاب ٨/ ١٧.
(٤) روح المعانى ٢٥/ ١٤٣.

وعنادهم يتحقق بمبادرتهم إلى الإصرار على الكفر فور سماع القرآن، دون أن يولوه قدره من التأمل والنظر، وذلك شأن المستكبرين حين يرون فيما يُدعون إليه طعنا فى كبريائهم، فهم يسارعون برفضه، كما حدث من المشركين الذين بادروا إلى التكذيب والكفر، فكان ذلك قرينة على أن التراخى غير حقيقى، وأنه أريد به استبعاد وقوعه فى منطق العقل والعدل بعد سماع ما يوجب الإيمان به.

أما الذين يرون إبقاء التراخى على حقيقته، فإنهم يجدون فى الإصرار على الكفر بعد طول الاستماع إلى القرآن إبرازًا لقبح الكفر، وسفاهة المصرين عليه، لأن الإصرار على الكفر بعد طول النظر المستوجب للمعرفة والإيمان، أقبح من الإصرار قبل تبين الحقيقة واستيضاحها. لأنه كفر عن جهل، والأول عن علم ويقين. وأنت ترى أن مثل هذا الوجه من البلاغة لا يُستحقر. ولذلك كان التراخى الحقيقى أبلغ فى استبعاد إيمان اليهود، والإنكار على المسلمين طمعَهم فى إيمانهم، فى قوله تعالى: ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٧٥] ذلك أن تحريف كلام الله بعد طول الاستماع والتدبر الذى أكده بقوله: «من بعد ما عقلوه» -ولا يتم عَقْله إلا بعد مهلة طال فيها الاستماع والتفهم- أدل على رسوخ الكفر، وأبعد فى الضلال، مما يجعل الطمع فى إيمانهم أشد بعدًا وأعظم استنكارًا.

وهذان الاحتمالان بالحقيقة والمجاز، أجازهما صاحب المنار فى قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ**﴾ [آل عمران: ٢٣]، قال: (فللتراخى وجهان: أحدهما استبعاد توليهم، لأنه خلاف الأصل الذى يكون عليه المؤمن. وثانيهما أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب يتولى ذلك الفريق بعد تردد وتروّ فى القبول وعدمه، وكان من مقتضى الإيمان ألا يتردد المؤمن فى إجابة الدعوة إلى حكم كتابه الذى هو أصل دينه. أورده الأستاذ الإمام، وقال: على أنهم لم يكتفوا

بالتـردد حتى تولوا بالفـعل، ولم يكن التولى عـرضا حـدث لهم بعد أن كـانوا مقـبلين على الكتاب، خاضـعين لحكمـه فى كل حال وآن، بل هو وصف لازم لهم، بل اللازم لهم مـا هو شـر منه، وهو الإعراض عن كـتـاب الله فى عامـة أحواله)[1].

فقـد رأى القائلون بالمجـاز أن الاستبـعاد يبرز التناقض فى فـكر أهل الكتاب وسلوكهم، إذ كان الشأن أن إيمانهم بكتـابهم يسلم إلى الإيمان بما دعوا إليه من تحكيم كتاب الله بينهم، فإعراضهم عما دعوا إليه مستبعد فى حكم العقل.

ورأى القائلون بالتراخى الزمنى أنه يبرز قبح توليـهم وإعراضهم بإضافة التردد فيما كان الشأن ألا تردد فيه.

ومثل هذا الوجه من حـقيقة التـراخى وما يشيعه من تعظـيم الجرم قال به ابن عطية فى قـوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ**﴾ [البقرة: ٩٢]، قال: (وقوله تعالى: «ثم اتخذتم»، تدل «ثم» على أنهم فعـلوا ذلك بعد مهلة مـن النظر فى الآيات، وذلك أعظم فى دينهم)[2] فى حين رأى أبو السعود أن تقبيح هذا الـفعل يُؤَدَّى بالتراخى المجازى فقال: (و«ثم» للتراخى فى الرتبة، والدلالة على نهاية قُبحْ ما صنعوا)[3].

بل إن هناك من أجاز الجمع بين الحقيقة والمجـاز كما جاء فى التحرير والتنوير عند قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦]، فـقال فى «ثم أنزل الله سكينته»: (و«ثم» دالة على التراخى الرتبى، فإن نزول السكينة ونزول الملائكة أعظم من النصـر الأول يوم حنين، على أن التراخى الزمنى مـراد، تنزيلاً لعظيم الشدة وهول المصيبة منزلة طول مدتها[4].

(١) تفسير المنار ٣/ ٢١٩.
(٢) المحرر الوجيز ١/ ٢٩٤.
(٣) تفسير أبى السعود ١/ ١٣١.
(٤) التحرير والتنوير ١٠/ ١٥٧.

وهذا صريح فى الجمع بين الحقيقة والمجاز، وهو مالم يجزه البيانيون، وإن أجازه الأصوليون ذاهبين إلى أن القرينة تمنع من الحقيقة وحدها، ولا تمنع من الجمع. قال الشيخ محمد الإنبابى تعليقًا على قول الصبان فى تعريف المجاز: (وقرينة مانعة عن إرادته): (قال العلامة الأمير: منه امتناع الجمع بين الحقيقة والمجاز، ومن أجازه من الأصوليين رأى أن القرينة تمنع من الحقيقة وحدها، أما عموم المجاز فجائز اتفاقًا)[1].

وإذا كان ابن عاشور قد أجاز الجمع بين الحقيقة والمجاز فيما ذكرنا مخالفًا أهل البيان، فإن غيره ممن أجازوا التراخى الرتبى والحقيقى فى المثال الواحد، لم يقولوا بالجمع بينهما، وإنما يرون صحتهما باعتبارين على سبيل التبادل، لا على سبيل الجمع، والممنوع فى المجاز هو إرادة الحقيقة مع المجاز. وذلك ما نبه إليه العصام حين قال تعليقًا على عبارة السعد عند تعريفه للكناية: «فظهر أنها تخالف المجاز من جهة إرادة المعنى الحقيقى مع إرادة لازمه»، قال العصام: (والممنوع هو الجمع بين المعنى ولازمه، على وجه يكونان مقصودين استقلالاً، ولا مانع من الجمع على وجه يكون أحدهما تابعًا للآخر، ووسيلة إلى قصده وفهمه).

إن كثرة ترديد معنى «ثم» بين الحقيقة والمجاز راجع إلى أن قرائن المجاز فيها ليست قرائن لفظية، وإنما هى قرائن مستمدة من أغراض السياق. والفيصل فيها للأذواق وحدها. وذلك ما أثرى معانيها واتسع بدلالاتها وأسرارها، وكأن القرآن يعمد بذلك إلى استثارة العقول والأذواق، وإحماء الشعور لاستقبال الفيض الإلهى بما هو أهله من الوعى والتيقظ، للوقوع على أسرار نظمه، وإدراك مقاصده وأغراضه.

* * *

(١) حاشية الإنبابى على الرسالة البيانية ٧٤.